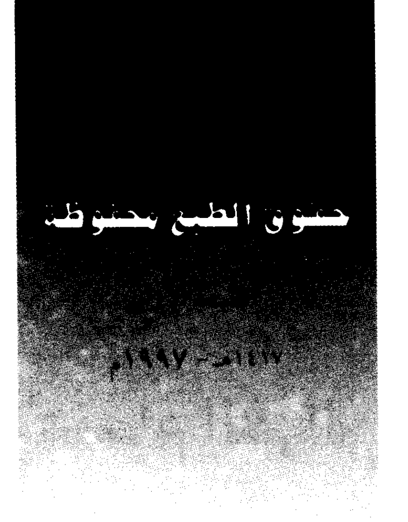
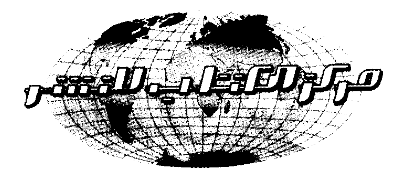
حجـة الإسـلام

الإمـــام الغزالى

مأمـون غـريـب

مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة

ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١شارع ابن النفيس-المنطقة السادسة- ت:٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحیم

إهــــداء :

إلى الباحثين عن الحقيقة . .

إلى الذين ينشدون الوصول إلى المرافئ الدافئة . .

إلى الذين يعيشون للّه . . وفى اللّه . .

إلى الباحثين عن الأمن والأمان . .

إلى الذين يريدون استقرار النفس وطمأنينة البال . .

والأمل فى نعيم اللّه . .

أهدى هذا الكتاب . .

مأمون غريب

كلمة

ما زلت أذكر طفولتى فى القرية . .

أيام عشتها . . ومازلت أتذكر تفاصيلها . . حلوها . . ومرها . .

أتذكر قصتى مع بدايات عمرى . .

طفل يحبو لا يعرف ما تخبئه له الأيام . .

وصبى يحاول أن يعرف . .

ولكن ماذا يعرف؟

وأى معرفة تلك التى يريد أن يعرفها؟

لا شىء يقينيا يريد أن يعرفه . . فالمرئيات غامضة . . والصور متداخلة، والألوان متشابكة . . ومع ذلك يريد أن يعرف . . ولكن خياله أوسع من واقعه . . وطموحاته أكثر من قدرته . . وفى هذا الجو كان يلفت نظرى موالد أولياء اللّٰه التى تقام فى القرية . . وكانت هذه الأيام وتلك الليالى من أسعد لحظات عمرى . . فالناس يأتون من القرى المختلفة وأرى أصحاب الطرق الصوفية بملابس عجيبة . . فأحاول أن أعرف . . وأسمع تفسيرات وكلمات عن كرامات الأولياء . . وارتبطت طفولتى بهذه الصور التى ترسبت فى أعماق نفسى . . وأصبح الحنين يجرفنى إلى معرفة هذا العالم الغريب . . عالم الصوفية . . وكبرت أمنياتي وأحلامى . . وأصبح عندى القدرة

على أن أقرأ . . وأفهم وأقدر . وشعرت فى لحظات من عمرى رغم قراءاتى المتعددة والمختلفة . . فى العلم . . والفلسفة . . والدين . . ومختلف المذاهب . . أننى فى حاجة إلى أن أنشر قلاع سفينتى . . وأخوض بها غمار دنياى بما فيها من قلق وتوتر وضياع حينًا ، وبما فيها من لحظات من السعادة أختلسها من أيام عمرى . .

ولكن أين الحقيقة؟! لقد تاهت منى الحقيقة . .

لم تزدنى الفلسفة إلا حيرة فى نفسى . . وبنفسى . .

ولم يزدنى علم النفس إلا أننى أمام قارة فى غاية الغموض اسمها النفس البشرية . . ولم أر فى المذاهب المختلفة فى الفلسفة والسياسة والاجتماع . . إلا أننى كهاوى حل الكلمات المتقاطعة فى الصحف والمجلات . . وربما شدتنى أيام طفولتى وحبى للتصوف -هذا الحب المبهم الغامض- أن أعود من جديد لقراءة الفلسفة الإسلامية، والتصوف الإسلامى . . ووقعت عيناى على الإمام الغزالى . .

إنه هو الآخر قد تاه فى وديان الفكر . . رغم أنه اغترف منه الكثير . . وعرف الكثير من علوم عصره وتبحر فيها . . ولم يزده ذلك إلا حيرة وألـمًا وعذابًا . . فهاجم الفلسفة والفلاسفة . . وأعلن حربًا شعواء على بعض رجال الدين الذين يقولون ما لا يفعلون . . ومع حيرته ويأسه . . عرف الطريق إلى الحقيقة، وكان هذا الطريق هو التصوف . . واستراحت نفسه . . فقد شعر أن سفينته رست على الشاطئ الآمن . . لا تزعزعها ريح . . ولا يعصف بها موج . .

لقد كنت أعيش مع الغزالى . . وأتخيله وهو يتقلب فى أودية العلم والمعرفة ليصل إلى اليقين . . وكنت أتمنى لو كانت لى تلك الأسلحة التى خاض بها الغزالى معركته مع الحياة ليصل إلى الشاطئ الآمن . . ولكن ما حيلتى . . وليست لى قدراته ولا أسلحته . . ولا عقليته الجبارة؟! فاكتفيت بمتابعة هذه الرحلة بإعجاب . . إنها دليل لكل من يحاول أن يعرف . . إنها قصة عبقرية خالدة على الأيام . . أعطت عصارة جهدها لخدمة الإسلام والمسلمين . . ومن يقرأ سيرته وقصة نضاله . . سوف يقدر هذه الشخصية المبهرة التى ستظل نور هداية للناس إلى يوم الدين . .

فلنعش رحلة سريعة مع هذه الشخصية التى أفادت واستفادت . . من رحلة العمر . . وتركت هذه الآثار الفكرية الرائعة لكل العصور . .

مأمون غريب

* * * * *



مقدمة

أبو حامد الغزالى شخصية من أعظم الشخصيات فى الفكر الإسلامى. وتعتبر كتبه من أعظم الكتب التى كان لها تأثير عميق فى الناس فى مختلف العصور . .

ولقد قرأت كتب الغزالى وأعجبت بها إعجابًا شديدًا ، وقرأت قصة حياته ،واستوقفنى كثيرًا . . إنسان قلق . . وعقلية جبارة . . يريد أن يعرف . . وطريق المعرفة صعب للغاية . . والوصول إلى الحقيقة عملية شاقة وشائكة . . لأن وسائل الوصول إلى الحقيقة مختلفة . . والأسلحة التى يستخدمها الإنسان فى سبيل الوصول إليها متعددة . . فهناك العقل . . وهناك الحواس . . وهناك المنطق . . وهناك الفلسفة . . وما أكثر الطرق التى تحاول الوصول إلى الحقيقة! ولكن الحقيقة نفسها شىء صعب المنال. . ولو كان الوصول إلى الحقيقة عملية سهلة أو هينة . . ما رأينا كل هذه المذاهب الفلسفية فى كل العصور . . فهى مذاهب مختلفة أشد مايكون الاختلاف، ورواية كل مذهب تختلف عن رواية المذاهب الأخرى . . وكنت أقول لنفسى وأنا أقرأ كتب الفلسفة لماذا كل هذه الحيرة ؟

ولما كل هذا الإجهاد للعقل والفكر للوصول إلى الحقيقة؟

كنت أعتقد أن الإسلام هو دين الفطرة . . دين البساطة . . ويكفى أن يؤمن الإنسان إيمانًا مطلقًا باللَّه . . وبرسوله . . فإذا ما وصل إلى هذا الحد . . فإن كل ما يخبرنا به الرسول ﷺ هو الحقيقة التى يجب أن نؤمن بها بلا حدود . . وهذا ما توصل إليه الإمام

الغزالى نفسه بعد أن تعمق فى الدين . . ودرس الفلسفة . . وكل علوم عصره. . وكان منتهى آماله . . أن يرزقه الله إيمان العوام. .

غير أننى عدت إلى نفسى . . إن كل مشتغل بالفكر لا بد أن يمر بمرحلة حرجة وهو يحاول أن يعرف أسرار الوجود . . وأسرار الحياة. . ويعرف الكثير عن العالم الذى يعيش فيه ، وعالمه الذى سوف يبعث إليه. . إنها رحلة شاقة ومضنية . . ولكنها شائقة وجذابة فى نفس الوقت. . والإسلام نفسه يحضنا على التأمل . . وعلى فهم أسرار الحياة . . والبحث وراء العلم . . وراء فهم أسرار الحياة . . وما أكثر آيات القرآن الكريم التى تحث على العلم ، وما أكثر أحاديث رسول الله الداعية إلى العلم. .

ولقد خاض الغزالى هذه البحار جميعها . . وهى بحار عميقة. . وواسعة . . ولا شاطئ لها . . خاض بحار العلم والجدل والفلسفة. . وعلم الكلام ودرس كل ما فى عصره من خير وشر . . ثم وصل إلى الشاطئ الآمن . . الذى ارتضاه لنفسه بعد رحلة شاقة خاضها . . وكانت فلسفته . . وكانت كتبه. . مصابيح هداية للناس فى كل العصور. .

وأمام هذه الشخصية المبهرة غاية الإبهار . . وأمام هذه العقلية الجبارة. . عقلية الغزالى . . كان أملى أن أقدم هذه الدراسة المبسطة. . والسهلة للقارئ؛ لعله يغترف من هذا البحر الزاخر. .

إن هذه الدراسة التى سوف تقرؤها . . وتجدها سهلة وميسرة. . هى نتاج قراءات جادة وصعبة طويلة . .

ولعلى أكون قد وفقت. .

مقدمة الطبعة الثانية

لا شك أن الإمام الغزالى كان قمة فكرية سامقة ، ويكفى أنه استطاع أن يوقف زحف الانبهار بالفلسفة ونظرياتها حتى خشى الناس من الخوض في غمارها . . لأن الخوض فى الفلسفة إنما هو خوض فى بحر بلا شاطئ . . إنه سير فى طريق بلا نهاية . . إنه غوص فى مشكلات لا حل لها!

أذكر أننى حاورت يومًا الدكتور أبو الوفا التفتازانى الذى كان شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وأستاذ التصوف بجامعة القاهرة حول التصوف وهل هو نزعة روحية أم نزعة فلسفية؟

يومها قال ما ملخصه:

إن التصوف الإسلامى نزعة روحية؛ لأنه يتجه أساسًا إلى مخاطبة القلوب وتصحيح أعمالها . . فهو تخلق وسلوك . . والتخلق يقتضى تصحيح النيات الباعثة على الأعمال بحيث تأتى هذه الأعمال محققة لمعنى الإخلاص، لقوله تعالى:

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١٤٦].

ويقول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] .

ويقتضى التخلق محاسبة النفس وتخليها عن الأخلاق الفاسدة. . والتمسك بالأخلاق الحميدة . . فتتخلى عن الحقد والحسد والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والكذب والكبر والعجب وغير ذلك ، وهذا من أعمال القلوب . . وغاية الطريق إلى الله عند الصوفية . . التحقيق بمعرفة الله تعالى ،وحبه الذى هو مصدر كل طاعة ، وقد جعل الله محبته مصدرًا لكل الخير ، ولكل طاعة فى قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد جعل الصوفية بداية الطريق إلى الله مجاهدة النفس ، وغايته القصوى معرفة الله . . وبين المجاهدة والمعرفة يتنقل الصوفية فيما يعرف بالمقامات والأحوال . . فالمقامات كالتوبة والزهد والصبر والرضاء والتوكل والصدق واليقين ومحبة الله ورسوله ، والأحوال كالأنس بالله والهيبة منه والقبض والبسط والخوف والرجاء والفناء واليقين.

والمقامات والأحوال هى مظهر الترقى الروحى للسالك لطريق الله حتى يصل إلى درجة العرفان بالله فى تجربة دينية ذوقية أساسها المعاناة الحقيقية . . ولذلك قال الصوفية:

- من ذاق عرف.

ولعلهم استخدموا كلمة الذوق من حديث الرسول ﷺ : ذاق

طعم الإيمان من رضى بالله ربًا وبمحمد رسولاً وبالإسلام دينًا.

فالصوفية هى الصفاء والطهر والنقاء..

ونعنى هنا بالصوفية الذين التزموا بالكتاب والسنة، فيقيمون ما أمر الله ورسوله، وينتهون عما نهى عنه الكتاب والسنة .. وهم الذين يتقربون إلى الله بما فرضه الله عليهم .. ويزيدون بمجاهدة النفس والهوى والشيطان بالنوافل وذكر الله ذكرًا كثيرًا ..

ولا أعنى به هذا التصوف الفلسفى .. وما فيه من شطحات .. وما فيه أيضًا من روافد دخيلة على الإسلام..

ولذلك فالصوفية لا تعنى إلغاء العقل .. والإمام الغزالى يقول:

- إن العقل هو ميزان الله تعالى..

والتكليف الشرعى كله ينبنى على العقل .. بل فهم الخطاب الشرعى يستند إلى العقل أساسًا..

وإذا كان التصوف الإسلامى منهاج الوصول إلى رضا الله والقرب منه والأنس به، فهو الوسيلة لتحقيق ما يصبو إليه المؤمن بالفوز بما عند الله فى الدنيا والآخرة .. ومن هنا فقد توقفت عند ما كتبه الدكتور / عبدالحليم محمود فى كتابه «قضية التصوف المنقذ من الضلال» .. إنه يقول:

أما أن التصوف دخيل على الإسلام فيكفينا فى الود على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء:

أولها : للشيخ عبدالواحد يحيى وهو فيلسوف مسلم صوفى. .

والثانى: للمستشرق الشهير الأستاذ «مسينيون» الذى يعتبر أعظم باحث فى التصوف بين المستشرقين فى العصر الحاضر. .

والثالث: لصاحب كتاب «التبصير فى الدين» وهو معنى أشد عناية بالرد على كل ما يخالف مذهب أهل السنة، ومؤلفه هو الإمام الكامل الفقيه الأصولى المفسر الأسفراييني. .

ويرى الشيخ عبد الواحد أن التصوف يكون جزءًا جوهريًا من الدين الإسلامى . إذ إن الدين يكون ناقصًا بدونه ، بل يكون ناقصًا من جهته السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروضًا رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى يونانى أو هندى أو فارسى ، وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطًا وثيقًا. .

وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وما يمثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض (الاستعارة) ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة . . فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور. .

ويقول الأسناد ماسينيون : وقد بين «نيكلسون» أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول. .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التى اختص بها

متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل . . ويذكر صاحب «التبصير بالدين» ما يمتاز به أهل السنة عن أهلهم من «الخوارج» و«الروافض» و«القدرية» فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو علم التصوف . . والإشارات وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، ولم يكن قط لأحد من أهل (البدعة) فيه حظ ، بل كانوا (محرومين) مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة . .

وقد ذكر أبو عبدالرحمن السلمى من مشايخهم قريبًا من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع القدرية والروافض والخوارج . .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة ، وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم . . ذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

* * * * *

إن الإبحار فى عالم الإمام أبى حامد الغزالى هو إبحار فى عالم إنسان آتاه الله من الموهبة ، والنضوج العقلى ، والتفتح الذهنى ، ما أثار الإعجاب به وبفكره فى عصره وما تلاه من العصور حتى يومنا الحاضر . . وقد خدم الإسلام خدمة جليلة بأفكاره الواضحة . . وهو

يشرح الفكر الإسلامى شرحًا عظيمًا . . مبينًا جوانب العظمة فيها كما يرجع إليه الفضل فى إبراز ما فى الإسلام من طاقات روحية هائلة ، يمكن من خلالها أن يعرف الإنسان أن الالتزام بالقيم الإسلامية والروح الإسلامية ، هو فى الواقع ارتفاع بإنسانية الإنسان إلى أعلى الذرا ، ومن خلالها يتحقق للمؤمن أن يفوز بما عند الله فى دنياه وأخراه . .

وانظر إليه وهو يحدثنا بأسلوبه الواضح الجليل ، وقدرته على أن يصل بكلماته إلى القلوب والعقول ، وهو يحدثنا عن وفاة الرسول ﷺ:

اعلم أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيًا وميتًا ، فعلاً وقولاً ، وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذا لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه ، فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ، وهل آخر لحظة بعد حضور منيته ، لا . . بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين يقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، ، وخيرات حسان . . بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة . . دافعًا عنه مقدورًا ؟ وهل راقب

الملك فيه أهلاً وعشيرًا ؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرًا وللخلق مبشرًا ونذيرًا ؟ هيهات بل امتثل ما كان به مأمورًا ، واتبع ما وجده فى اللوح مسطورًا ، فهذا حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود ، وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجيب ألا نعتبر به ، ولسنا على ثقة بما نلقاه. . بل نحن أسرى الشهوات ، وقرناء المعاصى والسيئات ، فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وحبيب رب العالمين . . . ، الخ.

بهذا الأسلوب السهل الممتنع فى كتاب «إحياء علوم الدين» . . وفى بقية كتبه ومؤلفاته . . نجد المفكر العميق الذى يكتب من خلال فهم عميق للإسلام . . ومن هنا فنحن نرى فيه وهو مجدد القرن الخامس الهجرى . . مازال فكره مجددًا للفكر حتى عصرنا الحاضر . .

ومع هذا الإمام الجليل . . نعيش رحلة حياته وفكره . . حتى انتقل إلى جوار ربه فى رضا من الله ورضا من الناس.

١ - وقائع حياة الغزالى

نحن الآن فى القرن الخامس الهجرى . .

فى هذا العصر امتلأت الحياة الثقافية بنشاط فكرى واسع . . فهناك الترجمات الكثيرة عن الفلسفة اليونانية . .

وهناك ظهرت المذاهب الإسلامية المختلفة ، كما انتشرت حركة الاجتهاد . . فكان عصرًا عجيبًا . . مليئًا بالحركة والحيوية والحياة . . ولكن فى نفس الوقت كان عصرًا قد ازدحم بصراع المذاهب والمدارس المختلفة . . عصرًا مشوبًا بالقلق والتوتر . . وتعقدت أمور الفكر . . وبرزت فى الأفق أسماء فلاسفة الإغريق ، وكثر الجدل . . واشتد الحوار . . وكاد الناس فى ظل هذا المناخ أن ينسوا أن الإسلام دين بسيط للغاية . . سهل للغاية . . ليس بهذا التعقيد الذى جلبه الفلاسفة وعلماء الكلام . . وهواة الجدل والسفسطة . .

وأن المسلمين فى عهد الرسول ﷺ ، قد أخذوا تعاليمه ببساطة . . فعلى المسلم أن يشهد بأن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ، وأن يقيم الصلاة وأن يؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، هذه هى الأعمدة الخمسة للإسلام . . وآمنوا بها إيمانًا عميقًا . . فى ظل هذه المبادئ تكونت حضارة عجيبة ، وانطلق الإسلام بسرعة البرق . . يحطم إمبراطوريات عاتية ، لم

تستطع أن تقف أمام زحفه الساحق ، وفى خلال سنوات قليلة جدًا كان الإسلام يحتل رقعة واسعة من الأرض تمتد حتى حدود الصين شرقًا وإلى إسبانيا غربًا . . إمبراطورية شاسعة . . انتشر فيها الإسلام لما يحمله من بساطة فى الاعتقاد . . وبساطة فى التعامل . . وبساطة فى التشريع . . وبساطة فى السلوك . . وبساطة فى النظرة الواعية للحياة . .

وفى ظل هذه البساطة . . كان الإنسان المسلم بسيطًا . . قويًا . . مؤمنًا بذاته . . ومؤمنًا بحقوق الآخرين . . يجمع التعاطف والرحمة ولين الجانب للناس. وتربط مشاعرهم الإخاء والمحبة والسلام . . ثم يربط بين قلوب الجمع إيمان بإله واحد أحد . . فرد صمد . . لم يلد ولم يولد . . ولم يكن له كفوًا أحد . .

خلق الإسلام من الأمة الإسلامية أعظم أمة فى الوجود . . ولكن سرعان ما امتصت الحضارة الإسلامية الكثير من حضارات الشعوب الأخرى التى انصهرت فى بوتقة الإسلام . . وأذابتها فيها . . حتى إذا ما جاء القرن الخامس الهجرى . . برزت المذاهب المختلفة فى الفلسفة وشتى فروع المعرفة . . بجانب الاجتهاد الدينى وبجانب الدراسات حول أصول الإسلام المستمدة من القرآن والسنة الشريفة . . والتى أخذت أساسها على يد الأئمة الأربعة وتلاميذهم . .

وكان لابد أن تكون هناك خلافات فكرية . .

وكان لابد أن يكون هناك صراع بين المذاهب المختلفة . .

وكان لا بد أن تظهر الأحقاد والفتن نتيجة ما يخلقه الصراع الفكرى بين الناس . . وابتعدوا أو كادوا عن المصدر العظيم لقوة الإسلام . . وهو البساطة . .

وقد زاد من اشتعال هذا الصراع إذكاء الخلفاء والحكام العباسين له . .

ومن هنا كان لابد من ظهور شخصية قوية الحجة . . قوية البيان . . عظيمة السلطان على قلوب الناس . . تعيد الناس إلى النبع الأول . . إلى الإسلام فى فطرته وبساطته . . وكان هذا الرجل هو حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى . .

ولكن الغزالى وهو يواجه هذا المجتمع الجديد لم يكن يأتى من فراغ . . فقد ولد فى هذا العصر ، وشاهد ما يموج فيه من مذاهب ونحل وملل . . وكان لا بد له أن يخوض تجربة هائلة . .

فعليه أن يدرس الإسلام دراسة واعية مستنيرة . .

وعليه أن يدرس كل ما فى عصره من معارف وعلوم . .

وعليه بعد ذلك أن يختار الطريق . . فى مجتمع بلغ فيه الفكر منتهاه ، وبلغت فيه الدراسات الفقهية والأدبية والفلسفية قمة النضوج . .

ففى ظل هذا المجتمع انصهرت فيه الحضارة الفارسية والهندية والصينية والرومانية والإغريقية . . والحضارة المصرية القديمة . . ونشأ

من كل ذلك حضارة جديدة أساسها القرآن والسنة ولكنها لم تخضع - وإن تأثرت - إلى أى حضارة من الحضارات التى ذابت فيها . . بل طورت ما دخلها من تراث الحضارات إلى واقع أكثر تطورًا واستنارة . . ولكن بالضرورة كان لا بد أن تظهر الفلسفات المختلفة . . وكان لابد للإسلام أن يواجه هذه المذاهب بنفس أسلحتها . .

فبرز علم الكلام . .

وظهرت الفلسفة الإسلامية . .

وظهرت القضايا العديدة التى يجب أن تناقش . . كالنفس . . والروح . . وعلاقة الجسد بالروح . . وكيفية الوصول إلى الحقيقة . . وتوغلت الدراسات فى محاولة لدراسة ما وراء الطبيعة . .

لنعد إلى الإمام الغزالى . . واسمه محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد الطوسى . . ولد فى طوس . . وهى مقاطعة فى خراسان شمال شرقى إيران سنة ٤٥٠هـ . . كان والده فقيرًا . . وكان رجلاً صالحًا يعمل فى صناعة الصوف . . وكان محبًا لعلماء الدين . . وكان منتهى أمله أن يرزقه الله ولدًا يكون عالمًا متفقهًا فى دينه مثلهم . . وكان الرجل شديد التأثر بهؤلاء العلماء وهو يستمع إليهم فى حلقات الدراسة . . وكثيرًا ما كانت تفيض عيناه بالدمع . . عندما تهزه موعظة أو نصيحة ، ولكن الرجل عاجله الموت ، فأوصى بالغزالى وأخيه أحمد أحد رجال الصوفية ليقوم برعايتهما . . وقام الرجل برعايتهما على أكمل وجه . . وكان صوفيًا فقيرًا . . ونفد المال الذى تركه الأب

فما كان من هذا الرجل الصالح إلا أن نصح الأخوين أن يكونا من طلبة العلم حتى يضمنا القوت الذى يعينهما على الحياة. . وفعلا ذلك. . وبذلك أسدى هذا الرجل الصالح للإسلام هذا الإنسان الذى سوف يصبح علمًا من أعلام الإسلام الذين قدموا للفكر الإسلامى كل ما هو جدير بالاحترام والتقدير . . عملاً بوصية والده. . فقد قال فى وصيته له:

« إن لى لتأسفًا على تعلم الخط ، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين فعلمهما ، ولا عليك أن تنفد فى ذلك جميع ما أخلفه لهما ». .

ولا أحد يعرف بالضبط اسم هذا الصوفى الذى أوصاه الوالد ليرعى أولاده . . كما لا نعرف بالضبط فى أى سن مات الأب وترك ولديه أحمد ومحمد . . وإن كانت الدلائل تشير إلى أنه مات وهما فى سن صغيرة . . وأعلب الظن أن هذا الصوفى قد قام بتعليمهما بنفسه مبادئ الكتابة والقراءة وتحفيظهما القرآن الكريم ، وبعض أمور الفقه البسيطة . . ولما لم يتيسر للشيخ دوام رعايته لهما بعد نفاد المال الذى تركه لهما والدهما . . أشار إليهما بالدخول فى إحدى المدارس فى البلدة . . وهذه المدارس كانت توفر للتلاميذ ما يعيشون به . . وقد كانت هذه المدارس منتشرة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى. . وقد درس أبو حامد الغزالى فى هذه المدرسة الفقه على مذهب الإمام الشافعى . . وكان أستاذه أحمد بن محمد الراذاكانى ، وأخذ بعد ذلك

على الإمام أبى نصر الإسماعيلى فى جرجان ، ثم رجع إلى طوس . .

وبعد ذلك قدم الغزالى إلى نيسابور . . حيث ازدهر فيها العلم، وتتلمذ على شيخ الحرمين . . ومات إمام الحرمين . . وكان الغزالى فى الثامنة والعشرين من عمره، فتوجه إلى الوزير نظام الملك . . حيث شاهده فى مناقشات مع بعض العلماء والفقهاء فقربه إليه ، وأصبح الغزالى مدرسًا فى المدرسة «النظامية» ببغداد . . وكان التدريس بهذه المدرسة منتهى أمل أى عالم من العلماء . . وهنا بدأت عبقرية الغزالى فى الظهور، وقربه إليه الخليفة العباسى المقتدى باللَّه، والذى شجعه على أن يكتب مؤلفه «المستظهرى» والذى يرد فيه على الباطنية . .

ولكن الغزالى الذى وصل إلى هذه المرتبة من العلم بدراساته المختلفة ، وتعمقه فى دراسة كل ما فى عصره من علوم ومعارف، لم يقنع بما وصل إليه من مجد وظيفى . . ولم يقنع بأن اسمه انتشر فى كل مكان كعالم عظيم ، وفقيه متعمق ، ومحدث لبق . . ومجادل خطير . . كان هناك شىء يؤرقه . . كان يشعر فى أعماق نفسه بأن هناك طريقا يريد أن يصل من خلاله إلى الهدف الكبير . .

والهدف الكبير هو الوصول إلى الحقيقة . .

إنه يريد أن يعرف . . وطريق المعرفة شائك . .

إنه يريد أن يصل إلى اليقين . . ولكن كيف؟

لقد عذبه الشك . .

نعم عذبه الشك . . إنه رغم ما حصله من علوم ومعارف وما درسه من فلسفات العصر وآدابه لم يزد إلا شكوكًا . . رغم ما وصل إليه هذا العصر من تقدم فى مختلف العلوم . . كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة والتصوف . .

ولقد نضجت هذه الدراسات كما أسلفنا بفضل تشجيع خلفاء بنى العباس لها . . وما أغدقوا من أموال على المترجمين الذين ترجموا إلى العربية الكثير من الأبحاث عن الهندية والفارسية واللاتينية والعبرية والسيريانية ، واليونانية . .

إن الغزالى العالم والفقيه . . ودارس الفلسفة ، والذى يستطيع بقوة منطقه ورجاحة عقله أن يجادل الجميع . . ويهاجم المعتزلة برأى أهل السنة ، ويهاجم أهل السنة برأى المعتزلة ، ويناقش الأشاعرة ، وعلماء الكلام . . كان يشعر فى قرارة نفسه القلقة أنه فى حاجة إلى الاستقرار واليقين . . وأنه فى حاجة إلى أن يصل إلى شاطئ آمن وأن يملأ اليقين عقله وقلبه جميعًا . .

ولكن كيف؟! لنسمعه يقول فى كتابه «المنقذ من الضلال»:

« لقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى . . من أول عمرى . . غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد من الصبا . . إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا

على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ قال : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . . فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . . فقلت فى نفسى أولاً: إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور . . فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . . بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنًا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهبًا . . والعصا ثعباناً . . لم يورث ذلك شكًا وابتكارًا ، فإنى علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا . . بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانًا . . وقلبها . . وشاهدت ذلك منه لم أشك - بسببه - فى معرفته ولم يحصل على منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه . . فأما الشك فيما علمته فلا . . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه : فليس بعلم يقينى ».

وواضح من هذا الكلام أنه يريد أن يصل إلى يقين كاليقين الرياضى . . فلا أحد يشك أن العشرة أكبر من الثلاثة مهما حاول من صنوف الإقناع أن يقنعنى بغير هذه البديهة . .

ولكن كيف يصل إلى هذا اليقين الشبيه باليقين الرياضى؟

إذن عليه أن يعيد النظر فى العلوم حوله . . وعليه أن يقوم بدراستها دراسة متعمقة . . لعله يجد فى أحدها أو فيها جميعًا ما يوصِّله إلى اليقين . . وتلفت فوجد أن عليه أن يتعمق فى هذه العلوم . .

- الفلسفة . .

- الباطنية . .

- المتكلمون . .

ولكنه وجد أن هذه العلوم جميعًا لا تفى بحاجة الإنسان إلى المعرفة الحقة . . فالفلسفة تؤدى إلى طريق مسدود . . لأن العقل كوسيلة للتحصيل ليس بقادر على الإحاطة بكل شىء . .

« ثم إنى فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه ، وتزييف ما يزيف منه . . علمت أن ذلك أيضًا غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشف الغطاء على جميع المعضلات» . .

هكذا تحدث الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال» . .

وفى كتابه أيضًا تراه يتحدث عن الباطنية . . الذين يدعون أن علمهم مستمد من الإمام المعصوم . . فما وجد عندهم إلا ما وجده فى الفلسفة . . وأنها مفسدة وخرج بهذه النتيجة . .

« لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم . . ولولا سوء فترة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة - مع ضعفها - إلى هذه الدرجة ».

إنه يتحدث عن هؤلاء القلة من الناس الذين ضلوا وأضلوا، فقال أيضًا فى «المنقذ من الضلال»:

« إن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء، بل مع عجزهم عن إقامة البرهان على يقين الإمام طالما جربناهم ، فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلاً عن القيام بحلها ، فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب وقالوا:

إنه لا بد من السفر إليه ، والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب العلم وفى التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئًا أصلاً . . كالمتضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله . . وبقى متضمخًا بالخبائث».

فهو إذن لم يجد ضالته فى هذه المذاهب الفلسفية المختلفة . . بل إنه ألف كتابه «تهافت الفلاسفة» يثبت فيه عدم جدوى الفلسفة . . وهذه الفلسفة وإن كانت لها بعض المنافع إلا أن مضارها أكثر من منافعها . .

وعلى كل فقد قلت إن الغزالى جاء فى عصر مليء بالحركات الفكرية والمذهبية والصراعات السياسية ، فبينما كانت فى الشرق الدولة العباسية ، كانت فى المغرب الدولة الفاطمية التى تناوئها وتناصبها العداء ، وتحاول انتزاع السلطات منها . .

ونرى هناك **المعتزلة** . .

ويرجع تاريخ هؤلاء المفكرين إلى القرن الثانى الهجرى فقد كان الحسن البصرى يجلس يلقى دروسه على الناس . . وذات يوم تعرض الحسن البصرى للخوارج . . وهل هم مسلمون أم أنهم خرجوا على الإسلام . .

وقال تلميذه واصل بن عطاء «بالمنزلة بين المنزلتين» ، وبذلك عارض أستاذه . . وأخذ يتخذ من المنهج العقلى وسيلة للوصول إلى الأحكام على الأشياء .

وهنا رد عليه الحسن البصرى . . وقال كلمته الشهيرة « لقد اعتزلنا واصل » . . ومن هنا جاء لفظ المعتزلة . .

فقد كان واصل يرى أن مرتكب الكبيرة مؤمن عاصٍ . .

وبدأت مدرسة المعتزلة . . التى كان لها تلاميذها وأتباعها والمؤمنون بها . . وفرضوا أنفسهم على الحياة العامة . . بل تحمس لها فيما بعد المأمون الخليفة العباسى . . إلا أن المتوكل عند تولى الحكم أدار لهم ظهره . . وحاربهم محاربة لا هوادة فيها . . مما أعطى

الفرصة لخصومهم أن ينقضوا عليهم ويحرقوا كتبهم . . ومن هنا فلم يكد يأتى منتصف القرن الرابع الهجرى . . إلا وقضى على مدرستهم الفكرية . .

وأهم ما يميز هؤلاء المعتزلة أنهم كانوا يقرون النصوص القرآنية بما يتلاءم مع فكرة الألوهية المجردة . .

وقد ناقش المعتزلة فكرة العدل والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

ولنوضح بسرعة . . وببساطة أيضًا . . وبدون تعقيد . . هذه الأفكار التى أثرت فى المجتمع الإسلامى، وما يزال صداها إلى اليوم.

فالله عادل . . وما دام عادلاً فلا يمكن أن يصدر عنه أى شر . . ومن هنا فإن ما يأمر به الإسلام وما ينهى عنه لا بد أن يتفق مع العقل . . وإذا كان الإنسان مسئولاً عما يفعله . . وأن الله عادل . . فلا بد أن يثاب المرء على حسناته ويعذب على سيئاته . .

وأهم آرائَهم أيضًا أن الذى يرتكب الجرائم أو الكبائر يعتبر من العصاة . . وهذا العصيان لا ينفى أنهم مؤمنون . . وأنهم يحاسبون على هذه الكبائر ، ويصبحون فى منزلة بين المنزلتين . . لأن الإيمان فى قلوبهم . . كما أن من مبادئ المعتزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . ولا يكتفى فى ذلك بالكلام . . ولكن لا بد من تحقيق هذا الأمل فى المجتمع الإسلامى ليصبح مجتمعًا معطرًا بأريج العدل والرحمة . . والأمن والأمان حتى لو استخدم فى سبيل ذلك القوة.

ولا شك أن هذه المدرسة أسدت الكثير إلى الإسلام . . لأنهم حاولوا أن يجعلوا للعقل هذه المنزلة الكبيرة . . وأن يجعلوا الدين غير متناف مع قواعد العقل ، ولكن العيب الذى أخذ عليهم أنهم حاولوا تسخير السياسة فى خدمة مذهبهم ، فارتقوا حين وقف بجانبهم الخليفة المأمون ، وقضى عليهم عندما وقف ضدهم المتوكل . . فحاربهم حربًا لا هوادة فيها . . كما أنهم عقَّدوا الأمر أكثر ما ينبغى . . فالإسلام سهل للغاية . . بسيط للغاية . . بل إن إعجازه فى هذه البساطة . . فقد أرهقوا العامة بالمصطلحات الفلسفية وأدخلوهم فى متاهات الجدل والنقاش ، وهذا ما حدا بالإمام الغزالى أن يحمل عليهم بعنف وشراسة فيما بعد ، كما أنه أيضًا هاجم الفلاسفة الذين امتلأت قواميسهم بالألفاظ الغامضة . . وآلى على نفسه أن يكشف زيف الفلسفات المختلفة . . ويوضح كل ذلك للعامة بأسلوب سهل . . وهذا ما حدا بالفلاسفة إلى مهاجمته وخاصة ابن رشد الذى جاء بعده بمائة عام تقريبًا . .

الأشاعرة:

وقد ظهرت مدرسة الأشاعرة فى منتصف القرن الرابع الهجرى . . وهذه المدرسة وجدت فى «الوسط» خير الحلول . . فلا مجال للجنوح إلى أقصى اليمين أو إلى أقصى الشمال . . واتخذت من المنطق الأرسطى وسيلة للوصول إلى هدفهم . . وقد تأثر أستاذهم أبو الحسن الأشعرى بمنطق أرسطو . . وكان وسيلته فى الجدل . . وهذه المدرسة

تربَّتْ تحت ظلال فلسفة المعتزلة . . ولكنها خرجت عنها لتطرفها . . واتخذت لنفسها أن خير الأمور الوسط . . لأن أبا الحسن الأشعرى مؤسس هذه المدرسة كان تلميذًا لأبى على الجبائى المعتزلى . . وقد بلغت هذه المدرسة الذروة على يد الإمام الغزالى الذى اعتنق مبادئها . . وكان بقوة منطقه وحجته . . وقدرته الفائقة على النقاش وذكائه المتقد . . واطلاعه الغزير . . ما دفع بهذه المدرسة دفعات قوية إلى الأمام . . فهم يميلون إلى السلف . . كما أنهم كانوا يجدون فى الحلول الوسط بين الآراء المتعارضة حول الأفكار خير وسيلة لوصول أفكارهم بسهولة ويسر إلى الناس . . لأن أفكارهم تعتمد على العقل . . وتعتمد على النقل أيضًا . . ومن هنا فقد لاءمت أفكارهم الخاصة . . ووجدت سبيلها إلى العامة . . لأنهم لم يصبوا أفكارهم فى قوالب تجهد العقل أو يصعب على الإنسان فهمها، وتأخذهم فى متاهات الفلسفة وسراديبها . .

المهم أن الغزالى . . وقد رفع راية هذه المدرسة . . وجد بعد ذلك فى نفسه دافعًا إلى الوصول إلى شىء عن علامات استفهام حائرة تدور فى ذهنه . . تؤرق أيامه ولياليه . .

اعتصر الشك قلبه . .

أخذ يبحث عن اليقين الذى يرد إلى نفسه سكينتها ، ويعيد إلى روحه الوثابة الهدوء والإطمئنان . .

إنه نفس السؤال الحائر يتردد من جديد . . تتناقل صداه السنون . . أين هو من الحقيقة ؟

إن العلوم التى درسها . . والفلسفة التى استوعبها . . لم تستطع إلا أن تزيد من شقاء نفسه . .

ومن عذاب التساؤل نحل جسمه وضعف . .

لقد كان منتهى أمل أبيه الذى كان يجهل القراءة والكتابة . . أن يرى ولديه الغزالى وأحمد من العلماء . . ولكن الموت عاجله دون أن يتم حلمه . . ويعهد إلى أحد الصوفية بولديه . . وها هو قد أصبح عالمًا يشار إليه بالبنان فى بغداد . . قريبًا من الخليفة . . يستشيره فى بعض القضايا السياسية والدينية . . ولكن كل ذلك لم يصرفه عن البحث عن الحقيقة . .

لم يكن أمله المال والجاه والسلطان . .

إن أمله وحلم خياله هو البحث عن الحقيقة التى يجد قلبه عندها الأمن والسكينة والأمان . .

وضاقت حياته بالحياة المترفة التى يحياها فى بغداد . .

وقيل إن الذى دفعه إلى الزهد . . وإلى طريق التصوف أخوه أحمد . . فقد روى الزبيدى فى شرح الإحياء أن أخاه دخل عليه يومًا وهو يلقى مواعظه على الناس . . فقال له أخوه:

أخذت بأعضادهم إذ ونـوًا

وخلفك الجهد إذ أسرعوا

وأصبحت تهدى ولا تهتدى

وتسمع وعظًا ولا تسمع

فيا حجر الشحر حتى متى

تسن الحديد ولا تقطع

ويقال إن هذا أيضًا كان دافعًا له إلى الزهد والتقشف . . والبعد عن الناس ثم اتجاهه إلى طريق التصوف . . إن الغزالى يصف هذه الفترة من حياته بقوله:

« نظرت إلى نفسى . . فرأيت كثرة حجبها . . فدخلت الخلوة . . واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يومًا انقدح لى من العلم ما لم يكن عندى أصغر وأرق منه مما كنت أعرفه . . فإذا فيه قوة فقهية . . فرجعت إلى الخلوة ثانيًا أربعين يومًا فانقدح لى علم آخر أرق وأصفى مما حصل عندى أولاً ففرحت به . . ثم نظرت فيه . . فإذا فيه قوة نظرية ، فنظرت فيه فإذا به قوة ممزوجة بغم . . وبه ألحق بأهل العلوم اللدنية . . فقلت إن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى» . .

وواضح أن الغزالى كان قد أنس إلى التصوف ، ووجد فيه منتهى آماله فقد صفت نفسه . . وشفت روحه . . شعر براحة نفسية

عميقة.. اتضح له أن هذا هو الطريق السليم .. حيث الشفافية والصفاء.. وحيث الأنس باللّه .. وحيث نجد أن الإلهام يفضى به إلى العلم اللدنى .. أى العلم من لدن اللّه جل علاه..

ليس فى هذا المجال مجال لسفسطة أو جدل عقيم..

وليس فى هذا المجال مكان للتلاعب بالألفاظ..

وليس فى هذا المجال مكان لفرد العضلات الفكرية..

إنما عن هذا الطريق .. الذى ينكشف أمام المريد بالتجربة الذاتية.. ما يجعل مغاليق الأمور تنكشف أمامه .. ويعرف عن طريق التذوق ما لا يخطر على البال .. إذن ما هى النتيجة التى توصل إليها الغزالى؟

لنسمع كلامه فى كتابه «المنقذ من الضلال»:

« .. أنى علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطريق .. وأخلاقهم أزكى الأخلاق .. بل لو جمع عقل العقلاء .. وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء .. ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم .. ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً .. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم .. فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة..

وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »..

لقد ظل الغزالى فى عزلة فترة، ثم قرر أن يخرج إلى الناس . . وأن يستفيد الناس بعلمه ، كما قرر أن يدخل فى معركة فاصلة مع رجال الفلسفة والمشتغلين بها . . ومع رجال الدين الذين يفهمون القشور ولم يتعمقوا فى جوهر الإسلام . . وأن يخوض حربًا قوية ضد الذين بلبلوا أفكار الناس . . وأبعدوا الإسلام عن نقاوته وجلالته وبساطته . .

والغزالى محارب جسور . . وعنده الأسلحة القوية من العلم التى يستطيع بها أن يقهر خصومه . .

صحيح أن خصومه من القوة بمكان . .

وصحيح أن أعداءه من الممكن أن يتألبوا ضده . .

ومع ذلك فإيمان الغزالى بأن له رسالة . . وأنه أحد المجددين العظام فى الإسلام . . كل ذلك دفعه أن يخوض الحرب ضد كل هؤلاء الذين صبغوا الحياة الفكرية والثقافية والدينية بطابع أبعد ما يكون عن روح الإسلام السمح . .

إنه سيعود إلى التدريس . .

وسيعود ليبشر بقيم الإسلام النبيلة . .

لقد خرج من بغداد عام ٤٨٨هـ وحج بيت الله الحرام وتوجه إلى دمشق وزار المسجد الأقصى ، ورحل إلى الإسكندرية ثم عاد إلى خراسان مهبط رأسه . . زاهدًا . . وتولى الغزالى الإشراف على

المدرسة النظامية بنيسابور. ولكن بعد سنة من توليه رئاسة هذه المدرسة.. أى عام ٥٠٠ هجرية .. يقتل الوزير «فخر الملك» .. ابن نظام الملك .. مما جعل الغزالى يترك المدرسة النظامية ويتوجه إلى بلدته طوس .. ورفض أن يعود إلى المدرسة النظامية .. حيث عكف على التدريس .. وعلى التأليف..

ويروى أن حياة هذا الإمام العظيم كان كلها إثراء للفكر والحياة إلى أن انتقل إلى جوار ربه فى ١٤ جمادى الآخرة من عام ٥٠٥ هجرية.. وكان ذلك فى صباح يوم الإثنين ، حيث صلى الصبح ثم طلب كفنه وقبّله ووضعه على عينيه .. واستقبل القبلة ، ثم مد رجليه .. وقال : سمعًا وطاعة للدخول على الملك .. وفاضت روحه إلى بارئها !!

* * * * *

٢ - الطريق إلى التصوف

بعد أن طفنا فى رحلة سريعة مع حياة الغزالى لا بد أن نتوقف عند أفكاره وآرائه . . وكيف كانت مؤلفاته علامات طريق فى الفكر الإسلامى . . وقد كتب الغزالى العديد من المؤلفات . . وأشهر هذه الكتب «المنقذ من الضلال» ، و«تهافت الفلاسفة» . . أما أعظم هذه الكتب على الإطلاق فهو بلا شك « إحياء علوم الدين » الذى تجاوزت صفحاته ثلاثة آلاف من القطع الكبير . .

وكما كتب الغزالى كل هذا الإنتاج الضخم . . فى الفقه والعبادات والتعريف بالدين . . وفى التصوف الإسلامى . . فقد كتب عنه أيضًا عشرات من الكتب التى ترد على أفكاره بعضها كان منصفًا بعض الشىء وبعضها كان ظالمًا للرجل . .

فقد كان لا بد أن يهاجمه الفلاسفة بعد أن هاجم الفلسفة كما فى كتابه « تهافت الفلاسفة » الذى ردوا عليه بكتابهم « تهافت التهافت » الذى ألفه ابن رشيد . .

وكان لا بد أن يرد عليه رجال الدين بعد أن هاجم أسلوب بعضهم فى الحياة . . وفى عرض الدين . .

كما كان لا بد أن يهاجمه الكثيرون فى المغرب العربى . . الذين أحرقوا كتبه . . وقد كان هذا الفعل من اسوأ الأشياء التى تركت آثارًا لا تمحى فى نفس الغزالى . . حتى إنه رفع يديه إلى السماء . . ودعا

على الذين مزقوا كتب الإحياء فى قرطبة .. وقال : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه .. وأذهب دولتهم كما حرقوه» ..

وكما أن الغزالى قد كرهه البعض فى حياته .. فقد كرهه البعض الآخر وحاربوه حتى بعد أن رحل عن الحياة..

ولكن المعجبين به فى كل العصور لا يمكن حصرهم..

بل إننا نرى حتى من المستشرقين من وقفوا أمام عظمة هذه الشخصية بكل احترام .. مقدرين الجهد الهائل الذى قام به فى سبيل نشر ما يؤمن به أنه الحق..

وإذا كان البعض قد فتن بالغزالى لدرجة لا يقبلها هو لو سمعها وهو على قيد الحياة .. فهناك الحاقدون عليه بصورة لا يقبلها أى عقل مستنير ..

لقد غالى البعض فى حبه..

وغالى البعض الآخر فى كراهيته..

ولكن الذى يقرأ أفكاره بموضوعية سوف يرى نفسه أمام أحد عباقرة الإسلام..

وسوف يقدر الجهد الكبير الذى قام به هذا الإمام الجليل .. كما أن من يقرأ مؤلفاته سوف ينتفع بها انتفاعًا كبيرًا .. بما حوت من أفكار رائعة .. وبما أوضح ما عليه الإسلام من جلال وجمال وعظمة..

ومن يقرأ «المنقذ من الضلال» سوف يقوم برحلة فكرية من أعظم ما يمكن أن يسجله مفكر وهو يرى رحلة حياة الإمام العظيم . . الذى ابتدأ حياته فقيرًا معدمًا . . يبحث عن طريق . . فيقوم على رعايته صوفى فقير . . وتمضى به الأيام . . فيغترف من العلم . . ويخوض بحاره العميقة . . بجسارة غريبة . . ويلتقط كل ما فى عصره من صور العلم . . ثم ينجو من وسط مخاطر هذا العصر الذى كثرت فيه الفتن والدسائس والمؤامرات السياسية . . بشخصه . . وعلمه . . وقوة حجته . . وسعة اطلاعه . . وعمق نظرته للأمور والحياة . . ثم ينتهى من هذه الرحلة كما بدأ . .

بدأها على يد رجل صوفى . .

وانتهى وهو صوفى عظيم . .

صوفى عن علم وتجربة ومعاناة . . بجانب المتعة الفائقة التى يشعر بها القارئ لهذا الكتاب وهو يطوف مع قلم جبار رحلة فكرية نادرة المثال . . قلَّ أن نجدها فى سيرة أى مفكر أو فيلسوف . .

لقد قرأت مثلاً « التأملات » . . الكتاب الذى ألفه الفيلسوف الفرنسى « رينيه ديكارت » . . وهو يصور فيه أيضًا رحلته ليصل إلى اليقين عن طريق الشك . . ورغم أن الكتاب متعة ذهنية رائعة . . وأنه يحاول أن يصل إلى اليقين عن طريق الشك . . وأن يخرج من ذاته كل المعلومات الخاطئة والسليمة . . ثم يعيد ترتيب أفكاره . . ليأخذ الصالح . . ويترك السيىء . . ويصل إلى الكوجتو الشهير:

« أنا أشك إذن أنا أفكر . . إذن أنا موجود » . .

إن هذه الاعترافات رغم ما فيها من مضمون فكرى ممتاز . . فقد شعرت بمتعة فكرية أجمل وأرق . . وأنا أقرأ « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالى . . كما أن أسلوب الغزالى ممتع . . كأنه يكتب بلغة القرن العشرين . . وأفكاره مرتبة . . منسقة ، وتسلسل الأحداث التى مرت به فى دنياه ينم على أننا أمام أديب مفكر فيلسوف . . متمكن من اللغة . . متمكن من المادة التى يريد إيصالها للناس . . واثق بعلمه ثقة بلا حدود . . وأهم من ذلك كله أنه يشعر شعوراً عميقاً بأنه صاحب رسالة . . وهذه الرسالة أن يجدد إيمان الناس بهذا الدين العظيم . . الدين الإسلامى . . وما يحمله بين ثناياه من طاقات هائلة . . لو عرفها المسلمون حق المعرفة لأصبحوا سادة الدنيا فى العلم والمعرفة . . والتقدم والحضارة . . ولأصبحت الحياة طيعة لينة فى أيديهم . . ولسادوا الدنيا كلها كما سادها الأجداد . . يوم عرفوا الدين على حقيقته ببساطته . . دون أن يغرقوا أنفسهم فى الجدل والسفسطة والمناقشات التى لا تؤدى إلى شىء ملموس . .

فالأجداد لم ينهكوا أنفسهم فى مناقشات عقيمة . .

ولا أغرقوا أنفسهم فى مصطلحات عسيرة على الأفهام . .

بل أنهم بإقامتهم شعائر الصلاة يعرجون بأرواحهم إلى الملأ الأعلى فى اليوم والليلة خمس مرات . . وبالصوم يروضون الجسد ويقهرون نوازعه وغرائزه . .

وبحج بيت الله يؤدون فرضًا واجبًا على القادرين . . فيلتقون بإخوانهم فى كل مكان . . ويتدارسون أحوالهم وشئونهم . . وتترعرع بين قلوبهم الرحمة والمودة والإخاء . . ويتذكرون القصة الخالدة . . قصة الخليل إبراهيم أبى الأنبياء . . وهو يقيم القواعد من البيت . . ويشعرون بمعاناة هاجر . . يوم أخذت تبحث لوليدها الرضيع إسماعيل بين الصفا والمروة عن الماء ليروى ظمأه . . فتنفجر الماء . . ماء زمزم من تحت أصابع قدمية . .

وفى طوافهم بالبيت العتيق . . يتذكرون عظمة نبيهم الكريم محمد ﷺ . . كفاحه الرائع . . وجهاده المتواصل . . لنشر راية الإسلام بين ربوع البشر . . وقبل كل ذلك . . إيمانهم بالله الواحد الأحد . . خالق الكون والحياة . . وما بعد الحياة . . وبرسالة محمد آخر رسل السماء . . هذه المبادئ البسيطة التى اعتنقها المسلمون الأوائل فى صدر الإسلام جعلتهم ينسون كل شىء إلا نشر نور الإسلام بين ربوع البشر . . ونشروه . . وتغلبوا على أقوى قوى هذا الزمان . . تغلبوا على الرومان والفرس . . وسقطت المدائن عاصمة كسرى فى يد المسلمين . . وفر الرومان مذعورين وطوى الإسلام بسرعة البرق أراضى شاسعة من كل قارات الدنيا . .

فما بال المسلمين . . قد أغرقوا أنفسهم فى الجدل . .

وما لهم وترهات الفلسفة ومتاهاتها؟

وما الذى سيجنونه من هذه الاختلافات التى أغرقوا أنفسهم بها؟

وما هذه الفرق التى دخلت الإسلام وهى غريبة على الإسلام ، والإسلام منها برىء!!

إن الغزالى يريد أن يرجع بالناس إلى النبع الأول والأوحد .. إلى القرآن الكريم .. وإلى نور النبوة..

بالقرآن الكريم .. وبسنة رسول الله ﷺ.. ترتفع رايات الإسلام ويبزغ أمام الأمة الإسلامية النور والأمن والأمان .. وتختفى الأحقاد والأهواء والفتن .. وتختفى المنازعات والأغراض الذاتية..

والذى يقرأ كتابه العظيم .. الضخم «إحياء علوم الدين» سوف يقوم برحلة عجيبة من خلالها يعرف كل شىء عن دينه .. يعرف كيف يهذب نفسه..

يعرف كيف تكون العلاقة بين الإنسان وخالقه..

وبين الإنسان ونفسه..

وبين الإنسان وأخيه الإنسان..

يعرف الحدود التى رسمها له دينه .. ليكون إنسانًا متكاملاً .. متوافقًا مع نفسه . مع ذاته .. والإنسان المتوافق مع ربه .. ومع نفسه .. ومع الناس لا بد أن يشعر بالسعادة والرضا .. ولا بد أن يشعر بالاستقرار النفسى .. ومن الصعب جدًا .. تلخيص هذه الكتب .. ولكن سوف نأخذ بعض النماذج .. وبأسلوب الغزالى نفسه .. لنرى كيف قدم هذا الرجل هذا الفكر الناضج .. وكيف أعطى صورة مشرقة للإسلام..

ولا شك أن فلسفة الغزالى الباقية هى دفعة التصوف الإسلامى دفعة قوية إلى الأمام . . فالتصوف هو بر الأمان الذى وصل إليه . . هو الواحة التى شعر تحت ظلالها بجلال الإيمان . . وقوة اليقين . .

هو النبع الصافى الذى ارتوت منه روحه . .

إنه القائل عن الصوفية :

« ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . . »

« ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . . »

وقال عنه أحد العلماء :

«رأيت الغزالى – رضى الله عنه – فى البرية، وعليه مرقعة وبيده عكازه . . وركوة، فقلت له: ياإمام . . أليس التدريس أفضل من هذا؟»

فنظر إلى شزرًا وقال :

لما بزغ بدر السعادة فى تلك

الإرادة وظهرت شموس الوصل

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزلى

وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادتنى الأشواق مهلاً فهذه

منازل من تهوى رويدك فانزل

وقبل أن نتحدث عن فلسفة الغزالى الصوفية لا بد أن نحدد ما هى أهم معالم التصوف؟

التصوف فكر وعمل ودراسة وسلوك . .

وإذا كان هناك اختلاف بين الصوفيين ، فهو اختلاف يدور حول فكرتين . .

هل سبيل الوصول إلى الله يأتى عن طريق الدراسة والبحث . . أم أن الوصول يأتى عن طريق الزهد والتقشف؟

وحول هذه التساؤلات . . كان الاختلاف بين المذاهب الصوفية المختلفة . .

والتصوف الإسلامى بدأ فى نشأته بسيطًا . . فمن المسلمين من كان يصوم نهاره ويقوم ليله ، ويجاهد نفسه بالزهد والتقشف كما فعل عبد الله بن عمر ، وبلال بن أبى رباح ، وسلمان الفارسى . . ولكن هؤلاء جميعًا يمكن أن نطلق عليهم كلمة زهاد . .

ولم تطلق كلمة الصوفية على جماعة محددة إلا فى القرن الثانى الهجرى . . عندما ترأس أبو الحسن البصرى متصوفة البصرة ، وإبراهيم بن أدهم متصوفة بلخ . . كما ذاع فى هذه الفترة تصوف

رابعة العدوية التى زهدت فى الدنيا حبًا فى الله . . والتى ذاعت كلماتها:

«والله ما عبدتك خوفًا من نارك ، ولا طمعًا فى جنتك ، ولكن حبًا فى ذاتك . . » . .

ولم يكد يأتى القرن الثالث الهجرى حتى انتشرت المذاهب الصوفية . . فترى البسطامى الذى نادى بفكرة الفناء فى الله . .

ونرى الحلاج الذى قال بإمكان الاتحاد مع الله . . أى يندمج فى الذات العليا . . أن يصبح جزءًا من الحقيقة الكبرى . . ولقد مات الحلاج قتيلاً بعد سلسلة من التعذيب . . عندما قال إن الله يمكن أن يحل فى جسم فرد من عباده . .

ولقد اتجه بعض المتصوفين إلى الأبحاث الفلسفية ليقوم مذهبهم على أساس فلسفى . . فكان من هو أقرب من الفلسفة كمحيى الدين ابن عربى القائل من كلماته الشهيرة جدًا:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى

إن لم يكن دينى إلى دينه دانى

وقد صار قلبى قابلاً كل صورة

فمرعى لغزلان ، ودير الرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنَّى توجهت

ركائبه فالحب دينى وإيمانى

كما نرى تصوف عمر السهروردى أقرب إلى الفلسفة أيضًا منه إلى التصوف. ولكن كل هؤلاء كان أثرهم فى التصوف خافتًا إذا قورن بما قدمه أبو حامد الغزالى فى هذا الميدان .. لأن الغزالى ترك بصماته على القرون التى تلته جميعًا حتى يومنا هذا..

لقد جاء الغزالى ليقول إن هناك عالمين..

عالم الظاهر..

وعالم الباطن..

وإذا كنا ندرك عالم الظاهر بالحواس .. فإننا بالتيقن والإلهام ندرك عالم الباطن .. ولكن هذا الفيض لا يتم عن طريق اتحاد أو حلول .. ولكن بمثابة كشف روحى يحدث فى اليقظة أو فى المنام للمقربين إلى اللَّه .. أى أن أبواب المعرفة تفتح نوافذها للعابد لدرجة لا يستطيع أن يصل إليها العالم بعلمه .. وكان منهج الغزالى هو الشك .. وبذلك سبق فلاسفة العصر الحديث .. من أمثال «ديكارت» فى فرنسا ، و «ديفيد هيوم» فى إنجلترا .. وإن اختلفت النتيجة .. وهو يوضح ذلك بقوله:

«من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال» . .

ولا شك أن عصر الغزالى بجانب ما كان فيه من صراع بين المدارس الفكرية المختلفة . . كان أيضًا عصرًا ساد فيه الترف . . وما تبع هذا الترف من فساد . .

ومن هنا فقد كان التصوف نوعًا من محاربة هذا الفساد بالعزوف عن الدنيا وما فيها من متاع زائل . .

ومن هنا فقد بعد الغزالى بفكره كما قلنا عن مذاهب الفلاسفة والمتكلمين والباطنية . . ويتضح عمق دراسته للفلسفة من كتابيه اللذين أصدرهما . . يشرح فى أولهما الفلسفة وهو كتاب «مقاصد الفلاسفة» . .

ويفند فى الثانى أوهام الفلاسفة وهو كتاب «تهافت الفلاسفة» . . المهم أننا نلحظ أن الغزالى يستمد فلسفته الإسلامية من القرآن والسنة . . والتصوف عنده مستمد من القرآن والسنة أيضًا . . والمعرفة يمكن أن نستمدها عن طريق التعلم العادى . . أو عن طريق العلم اللدنى . . المستمد من لدن الله سبحانه وتعالى . .

وهنا يجب أن نقف عند تساؤل مهم . . وهو : هل التصوف الإسلامى مستمد من الفلسفة الهندية وغيرها من الفلسفات؟ أم أن التصوف يستمد أصوله من روح الإسلام؟

الغريب أن الكثيرين من الذين كتبوا أبحاثًا مطوّلة عن التصوف الإسلامى يزعمون أن هذا التصوف مستمد أصلاً من الفلسفة الهندية أو الرهبنة فى المسيحية! وهذا زعم استنبطوه .. ولكنه بعيد - فى رأيى - عن الحقيقة..

فقد رأوا فى الفلسفة الهندية أن الإنسان يمكن أن يصل إلى مرحلة «النرفانا» .. أو الاتحاد بالذات العليا ، ورأوا أن بعض الصوفية فى الإسلام قالوا بالاتحاد .. فلا بد أن هذه الأفكار جاءتهم من هذه الفلسفات..

ورأوا فى الرهبنة المسيحية .. من يعيشون فى الأديرة بعيدين عن الناس ، وأن هناك من المتصوفين من يعتزلون الناس .. فلا بد أن يكون هناك تأثر من جانب هؤلاء الصوفية بالرهبان فى أديرتهم..

ربما يكون فى هذا شىء من الصحة..

ولكن التصوف الحقيقى .. المستمد من كتاب الله ، وسنة رسوله.. كما نراه عند الإمام الغزالى ليس متأثرًا من قريب أو بعيد بهذه الفلسفات .. ولا بهذه الأفكار..

فإن كان بعض الصوفية يقومون بالليل ، فلهم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة..

فالقرآن يصف النبى ﷺ .. وعبادته بقوله فى سورة المزمل:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل: ١ - ٤]. .

ويقول فى هذه السورة أيضًا:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل: ٢٠]. .

ونحن نقرأ فى القرآن الكريم ما يحث المؤمن على الطاعة ، والأنس بالله ، والاعتماد عليه . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

ونقرأ فى القرآن الكريم أيضًا:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

و . . ما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التى تحض على العبادة . . تلك العبادة التى تقرب الإنسان من اللَّه . . فتصفو النفس بعد كدر . . ويشعر الإنسان بالسعادة للقرب من اللَّه . .

وما أكثر أحاديث النبى ﷺ . . فى فضل العبادة وقد كان النبى ﷺ نفسه مثلاً أعلى لعبادة الله وشكره . . وكلنا نعرف كيف كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه . . فلما سألته السيدة عائشة رضى الله عنها :

« ألم يغفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟»

كان رد الرسول الكريم ﷺ :

« أفلا أكون عبدًا شكورًا !!»

وهناك أيضًا ما يشير إلى أن العبادة توصل الإنسان إلى ما لا يخطر له على البال . . ونحن نتذكر حديث الرسول ﷺ عندما سأل حارثة كيف أصبح . . كان رد حارثة :

« أصبحت مؤمنًا باللّه حقًا . . عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمات نهارى . . وكأنى بعرش ربى بارزًا . . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة وهم يتزاورون فيها وأهل النار وهم يتعذبون فيها » . .

فقال له الرسول :

«انتصرت فالزم» . . وفى قول آخر : « عرفت فالزم » .

كل هذا يعطى إشارة أن التصوف الإسلامى المستمد من القرآن والسنة له مناهجه . . وله أصوله الإسلامية . .

وعندما نتحدث عن التصوف فنحن نتحدث عن التصوف السليم المستمد من الكتاب والسنة . . كالذى اتبعه الإمام الغزالى . . ليس التصوف المليء بالبدع والدجل . . أو الذى استمد من روافد بعيدة عن روح الإسلام وتعاليم الإسلام. .

والذى يترك أى فرض من فروض الإسلام باسم التصوف . . فالإسلام بريء منه. .

أو على حد تعبير سفيان الثورى:

« العلماء . . عالمان . . عالم بالله وبأمر الله . . فعلامته أن يخشى اللّه ويقف عند حدود اللّه. .

وعالم باللّه دون أوامر الله فعلامته ألا يخشى الله فى حدوده» . .

كما نقرأ عن أبى يزيد البسطامى قوله:

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء، فلا تغتر به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة» . .

وقد حدد ابن خلدون التصوف الإسلامى بقوله:

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين. . ومن بعدهم طريقة الحق والهداية . . وأصلها العكوف

على العبادة.. والانقطاع إلى اللّه - تعالى - والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلوة فى الخلود والعبادة ، وكان ذلك عامًا فى الصحابة والسلف . . فلما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده . . وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا . . اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والتصوف» . .

وهنا يبرز سؤال . . حول اعتراض البعض على كرامات الأولياء:

إنه من المعروف إذا كانت هناك معجزات للأنبياء فهناك أيضًا الكرامات للأولياء. .

ويمكن مثلاً أن نسوق بعض الأمثلة القليلة التى تثبت هذه الحقيقة. . أمثلة على سبيل المثال . . لا الحصر. .

فقد روى أن أبا بكر الصديق قال لعائشة - رضى الله عنها - قبل وفاته . . وكانت زوجته حاملاً: إنما هما أخواك وأختاك . .

وقد ولدت زوجته بالفعل بنتًا . . بعد وفاته. .

والحادثة الشهيرة لعمر بن الخطاب . . عندما قطع كلامه فى إحدى خطبه على المنبر . . وقال: يا سارية الجبل . . الجبل . . وسمع سارية - وكان محاصرًا من قبل العدو - كلمات عمر تنساب إلى مسمعه عبر مئات الأميال . . ويلتجئ إلى الجبل وينجو من موت محقق. .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه:

«دخلت على عثمان - رضى الله عنه - وكنت قد قابلت امرأة فى طريقى فنظرت إليها شزرًا ، وتأملت محاسنها . . فقال عثمان - رضى الله عنه - لما دخلت :

- يدخل أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه . . أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك!

فقلت : أوحى بعد النبى !!

فقال : ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة. .»

والأمثلة كثيرة. .

إن التصوف . . هو المنقذ فى هذه الحياة . . حيث تتجاذب الإنسان الأطماع والشهوات . . وحب الدنيا . . والتكالب عليها . . مع أنها لا تدوم لأحد . . ومع أن لقاء الله حق . . والموت حق . . فلا مناص لمن يريد أن يلقى الله بقلب مطمئن . . إلا أن يلجأ إلى هذا الطريق . . طريق التطهر . . طريق الصفاء . . طريق التصوف. .

ولن نقف طويلاً أمام اسم «التصوف» هل ترجع هذه التسمية إلى لبس الصوف ، أو إلى صفاء النفس . . فالمهم أن طريق التصوف . . الملتزم بالشريعة هو الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة. .

ولقد توصل الغزالى إلى هذه الحقيقة بعد مجاهدات كثيرة . . وبعد معاناة كثيرة . . لأنه ليس من السهل على الإنسان أن يترك الجاه

والشهرة . . ليسلك هذا الطريق . . إنه يقول فى كتابه «المنقذ من الضلال»:

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبًا من ستة أشهر ، أولها رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يومًا واحدًا تطيبًا لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنًا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا :

«هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يتروح السر عن الهم الملم» . .

« ثم لما أحسست بعجزى . . وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى اللَّه - تعالى - التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى (يجيب المضطر إذا دعاه) وسَهَّل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والولاة والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرًا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى المقام بالشام ، فتلطفت بلطاف الحيل فى الخروج من بغداد وعلى عزم ألا أعاودها أبدًا ، واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم مَنْ يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببًا دينيًا ،

إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم» . .

« ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن الفراق أن ذلك كان لاستشمار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم» . .

« ففارقت بغداد ، ومزقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصًا بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفًا على المسلمين ، فلم أر فى العالم ما لا يأخذه العالِم لعياله أصلح منه» . .

« ثم دخلت الشام وأقمت به قريبًا من سنتين ، لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طوال النهار . . ثم تحركت فى داعية فريضة الحج . . والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز» . .

« ثم جذبتنى الهمم . . ودعوات الأطفال إلى الوطن . . فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه . . فآثرت العزلة به أيضًا

حرصًا على الخلوة وتصفية القلب للذكر . . » . .

« وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال إلا فى أوقات مختلفة ، لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها . . فتدفعنى عنها العوائق وأعود إليها» . .

إن الغزالى الذى أصبح رائدًا من رواد التصوف . . وأحد أعمدته . . كتب من المؤلفات ما سوف تظل علامة على الطريق لكل من ينشد الطريق السليم . . وأن يفهم دينه فهمًا واعيًا مستنيرًا . . وأن يقترب من روح الإسلام . . وأهم كتبه «إحياء علوم الدين» ، و«الاقتصاد فى الاعتقاد» ، و«فضائح الباطنية» ، و«المنقذ من الضلال» . . و«معيار العلم» ، و«تهافت الفلاسفة» . .

إن ميزة الغزالى أنه عندما كان يقدم دراسة فإنه لا يقوم بها إلا بعد أن يدرسها دراسة واعية مستفيضة . . يدرس جزئياتها وعمومياتها . .

إنه يدرس الفلسفة . . ويتعمق فيها . . وعندما يكتب يهاجم الفلاسفة . . فإنه لا يهاجم من فراغ . . ولكن يهاجمهم وهو يعرف مواضع الضعف فيهم . . ويهاجمهم وهو يقف على أرض صلبة . . والأرض الصلبة هى فهمه لحقائق الدين التى تختلف مع آراء الفلاسفة . . ومن هنا فقد هاجم الغزالى بعنف الفلاسفة عندما درس مشكلات « الميتافيزيقا» . . أو ما وراء الطبيعة . . وأنكر . . بل كفر

قول هؤلاء الفلاسفة الذين يقولون إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات . .

وقال : إن اللّه يعلم بالكليات والجزئيات . . لأنه يعلم الظاهر والباطن . . وإن البعث سوف يكون بالروح والجسد . . واختلف مع هؤلاء الفلاسفة الذين قالوا بأن العالم قديم . . وقال بأن العالم حادث . . لأن اللّه خلق هذا العالم من عدم . . وهو فى هذا يختلف مع أرسطو وابن سينا والغرابى الذين قالوا بقدم العالم . .

ولكن هل هناك علاقة بين الأسباب والمسببات؟

وأجاب الغزالى بالنفى . . لأن العلاقة ليست ضرورية . . لأن كل ذلك يرجع إلى اللّه سبحانه وتعالى . . وتراه فى هذا متمسكًا بالمذهب الأشعرى . .

والإيمان عنده مراتب . .

مرتبة إيمان العوام . .

مرتبة إيمان المتكلمين . .

مرتبة إيمان المتصوفة . .

وبالطبع لأنه اعتنق التصوف فإن قمة الإيمان هى إيمان المتصوفة الذين يعرفون اللّه حق المعرفة عن طريق الحدس والإلهام . . وإن الطريق مفتوح أمامهم ليروا بأنوار قلوبهم الحقيقة . .

والذى يدرس الإمام الغزالى لا يمكن أن ينسى قدرته الفائقة فى الربط بين الأخلاق والدين . . لأنه مزج بين الفلسفة الخلقية ومجال الإلهيات . . والأخلاق عنده ليست مجرد شعارات نظرية . . ولكن الأخلاق عمل وسلوك . . يؤدى إلى الفضيلة . . والعمل الذى يرضى اللّه ورسوله هو العمل الفاضل الذى يصلح به الفرد ويصلح به المجتمع . . ولكنه لم يترك الباب مسدودًا أمام العادات السيئة التى يتخلق بها الفرد . . فالإنسان يمكن أن يعدل سلوكه عن طريق التوبة . . فيسلك الطريق المستقيم . . أى أن الأخلاق يمكن أن تهذب إلى الأحسن . . وعلى الإنسان أن يسلك الطريق الأوسط فى مأكله ومشربه وملبسه . . وهو يستمد من القرآن الكريم والسنة هذه الآراء . . فالقرآن يقول:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف: ٣١].

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء: ٢٩].

والرسول العظيم ﷺ يقول:

«كل واشرب وتمتع بغير سرف ولا مخيلة» . .

وللغزالى آراء طيبة فى التربية . .

والتربية فى نظره تبدأ منذ الطفولة ، فالطفل أمانة فى عنق والديه، وعلى الوالدين أن ينشأ الطفل على السلوك المستقيم ، وكيف يعامل الناس ، وعلى الأسرة أيضًا أن تعلم الطفل آداب المائدة واحترام الآخرين . . وتعليم الطفل مسئولية مهمة تقع على عاتق الأبوين . . ولا بد أن تكون هذه التربية مستمدة من الشريعة . . والتدليل فى رأيه يفسد الطفل . .

ويحدد الغزالى العلاقة بين المدرس والتلميذ . .

فالعلم رسالة فى عنق المدرس . . فلا بد أن يكون المدرس . . وهو المثل الأعلى للتلميذ قدوة لتلاميذه . .

ولا بد لكى نعرف قدر الرسالة التى أداها هذا الإمام العظيم . . مجدد القرن الخامس الهجرى . . الذى لقبوه عن جدارة بأنه حجة الإسلام . . أن نلتقى معه وجهًا لوجه من خلال ما كتبه فى كتابه الضخم الرائع « إحياء علوم الدين » . .

* * * * *

٣ - الغزالى ومعاركه الفكرية

لا شك أنك أخذت صورة عن حياة الغزالى . . صورة سهلة ومبسطة . . ومن خلال هذه الرحلة رأينا أنفسنا أمام شخصية ممتازة نادرة . . أهدت للإنسانية كل ما هو جدير بالحياة . .

لقد أخذنا صورة عن حياته . .

وكيف درس كل علوم العصر . .

وكيف هاجم هذه العلوم . .

ووجد أن الطريق السليم هو الطريق إلى اللّٰه . .

فاللّٰه هو الحقيقة الكبرى . .

ومؤلفات الغزالى غزيرة . . ومتعددة . . وأشهرها بلا شك هو كتاب «إحياء علوم الدين» . . وهذا الكتاب من الضخامة بمكان . . ومن الصعب تلخيصه . . كما أنه كتب بلغة راقية جميلة . . كأنها لغة هذه الأيام . . ولأن موضوع الكتاب متشعب . . ويطرح فيه الكثير من القضايا ويجيب عنها . . فإننا هنا - ما دام من الصعب تلخيصه - نشير إليه إشارة من بعيد . . نعطى للقارئ صورة عن هذا الكتاب الذى ترك وما زال آثارًا عظيمة عبر التاريخ الإسلامى . .

إنه فى هذا الكتاب يعطيك صورة عن نظرة الإسلام لمختلف أمور الحياة . . فى الشرع . . فى علاقاتك مع نفسك . . فى علاقاتك مع

اللّه . . فى علاقاتك مع الآخرين . . إنه موسوعة هائلة من أعظم ما أنتج العقل الإنسانى . .

وما دام من المتعذر أن نعطى موجزًا عنه فى سطور . . فلنسبح مع الغزالى قليلاً فى بحور هذا الكتاب . .

ومن المعروف أن الغزالى ألف هذا الكتاب بعد أن ترك بغداد . . أى أنه ألفه بعد أن نضج عقليًا . . واستوعب علوم عصره . . وخاض حروبه مع الفلاسفة ، وعلماء الكلام . . وعلماء الدين . . والباطنية . . وبعد أن انكشفت أمامه أنوار الهداية . . فقد جاء هذا الكتاب بعد معاناة فلسفية وفكرية . .

وهو كتاب عظيم بلا شك . .

ولقد غالى البعض فى مدحه حتى قالوا إنه يكفى أن يقرأ الإنسان فى هذا الكتاب ويستغنى عن أى كتب أخرى . .

وطبعًا هذه المغالاة نرفضها . .

إنه عالم عظيم اجتهد وأفاد . .

ويمكن أن يخالف فى بعض آرائه ، ولكن هذا الكتاب من الكتب الهامة جدًا بلا شك . .

وهو يوضح فى مقدمة هذا الكتاب الهدف من تأليفه فيقول:

« فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ، ولم يبق إلا المتمرسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد يعاجل حظه

مشغوفًا ، فصار يرى المعروف منكرًا والمنكر معروفًا ، حتى ظل علم الدين مندرسًا ، ومنار الهدى فى منطقة الأرض منطمسًا ، ولقد خيلوا الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاء على فصل الخصام بينها وبين الطغام . . أو الجدل يتذرع به طالب المباهاة لى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام . . وشبكة للحطام . .

فأما علم طريق الآخرة ، وما درج السلف الصالح مما سماه اللَّه - سبحانه وتعالى - فى كتابه فقهًا وحكمة وعلمًا وضياء ونورًا ، وهداية ومرشدًا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويًا ، وصار منسيًا ، ولما كان هذا ثلمًا فى الدين ملمًا وخطبًا مدلهمًا فرأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهمًا لإحياء علوم الدين ، وكشفًا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحًا لعناصر العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالح» . .

واضح من هذه المقدمة أن المؤلف الإمام الغزالى يريد من تأليفه هذا الكتاب «إحياء علوم الدين» . . إحياء العلوم المتصلة بالدين حتى يفهمها الناس ، ويفهموا أمور دينهم عن قرب وعن وعى . . بعد أن رأى بُعْد العلماء من تحقيق هذه الرسالة واستغراقهم فى البحث عن الكلمات الجوفاء المنمقة يتملقون بها مشاعر العامة أو يرضون بها أهواء الحكام . .

لقد انبرى الغزالى كثائر ليوضح للناس حقائق دينهم . . ويهاجم خصوم الدين من الفلاسفة . . والمتقاعدين عن نصرته من رجال الدين . . وكان ذلك دافعًا لأن يؤلف هذا الكتاب الضخم الذى تتجاوز صفحاته أكثر من ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير . .

لنطف إذن من هذا الكتاب المهم بعض صفحاته . . ولنختر منها بعض النماذج . . حتى يتيسر لقارئ هذا الكتاب أن يلتقى مباشرة مع الغزالى . . وأن يعيش مع فكره . . وسوف يشعر بعمق المعانى وبجمال الأسلوب . . وبرهافة حس حجة الإسلام الغزالى . .

ولن تكون رحلتنا مع أفكار هذا الكتاب مرتبة حسب أجزائه . . بل سوف تكون هذه المختارات مترابطة مع منهج هذا الكتاب . . حيث نطوف مع المؤلف معًا حول حديثه عن الرسول ﷺ وأخلاقه وصفاته . . ومعاملاته للناس . . وسوف نرى أنفسنا كأننا نقرأ قصة جذابة مترابطة الخطوط والأحداث . . رغم أن هذه كتبه فى الجزء السابع من الكتاب . . ثم نسير فى رحلتنا بعد أن نقف عند الرسول العظيم . . لأنه معلمنا ونبينا ورسولنا وقدوتنا ومثلنا الأعلى . .

ثم بعد ذلك نطوف مع الأحياء فى أهم الموضوعات التى ناقشها . . لأن هذه الموضوعات مستمدة أصلاً من القرآن الكريم . . ومن سنة الرسول ﷺ . .

ونحن بهذا المنهج لا نخرج عن الخطوط التى وضعناها لتأليف هذا الكتاب . . لأن هذا الكتاب ليس مجرد رحلة فى عقل الغزالى . .

بل أيضًا رحلة عما انطبع فى عقل الغزالى من أفكار . . وهذه الأفكار استمدها من الإسلام . . فحديثنا عما كتب من أفكار فى هذا الكتاب وغيره يقرب الصور أكثر من الرجل ومن أفكاره . . ومن مسيرة حياته أيضًا . .

إنه يأخذنا فى رحلة شائقة عن تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمد ﷺ بالقرآن فيقول:

« كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال ، دائم السؤال من الله - تعالى - أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول فى دعائه:

اللهم حسن خَلقى وخُلقى . .

ويقول:

اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، فاستجاب اللّه دعائه وفاء بقوله عز وجل : ادعونى أستجب لكم فأنزل عليه القرآن ، وأدبه ربه فكان خلقه القرآن . .

قال سعد بن هاشم : دخلت على عائشه رضى الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن؟؟

قلت : بلى . .

قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . . وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقوله:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله:

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقوله :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقوله:

﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولما كسرت رباعيته ، وشج وجهه يوم (أحد) .. فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول:

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟؟» ..

فأنزل اللَّه تعالى:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

تأديبًا له على ذلك ، وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر ، وهو عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب..

ثم منه يشرق النور على كافة الخلق .. فإنه أدب بالقرآن .. وأدب الخلق به ، ولذلك قال ﷺ :

« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردناه في كتاب «رياضة النفس وتهذيب الأخلاق» فلا نعيده..

ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فسبحانه .. ما أعظم شأنه ، وأتم افتنانه ، ثم انظر عميم لطفه وعظيم فضله .. كيف أعطى ثم أثنى ، فهو الذى زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إلى ذلك فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ثم بين رسول الله ﷺ أن الله يحب مكارم الأخلاق .. ويبغض سفاسفها..

قال على رضى الله عنه:

« يا عجبًا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً .. فلو كان لا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا .. لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق .. فإنها مما تدل على سبيل النجاة .. فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم.. وما هو خير منه ، لما أتى بسبايا (طىء) .. وقفت جارية فى السبى فقالت : يا محمد، إن رأيت أن تخلى عنى .. ولا تشمت بى أحياء العرب .. فإنى بنت سيد قومى وإن أبى كان يحمى الذمار .. ويفك العانى .. ويشبع الجائع .. ويطعم الطعام ويفشى السلام .. ولم يرد طالب حاجة قط .. أنا ابنة حاتم الطائى ..

فقال ﷺ :

«يا جارية هذه صفة المؤمنين حقًا . . لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه . . خلو عنها . . فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق» . .

فقام أبو بردة بن نيار فقال:

« يا رسول الله، اللَّه يحب مكارم الأخلاق؟» . .

فقال:

« والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق ».

وعن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال:

« إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . . ومن ذلك حسن المعاشرة ، وكرم الضيافة . . ولين الجانب . . وبذل المعروف . . وإطعام الطعام . . وإفشاء السلام . . وعيادة المريض المسلم برًا كان أو فاجرًا . . وتشييع جنازة المسلم . . وحسن الجوار لمن جاورت مسلمًا كان أو كافرًا . . وتوقير ذى الشيبة المسلم . . وإجابة الطعام . . والدعاء عليه . . والعفو والإصلاح بين الناس . . والجود والكرم . . والسماحة والابتداء بالسلام . . وكظم الغيظ . . والعفو عن الناس . . واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها . . وكل ذى وتر . . وكل ذى دخل . . والغيبة والكذب والبخل . . والشح . . والجفاء . . والمكر . . والخديعة . . والنميمة . . وسوء ذات البين . . وقطيعة الأرحام . . وسوء الخلق . . والتكبر . . والفخر . .والاختيال . . والاستطالة . . والبذخ . .

والفحش والتفحش .. والحقد والحسد .. والبطرة والبغى والعدوان.. والظلم»..

قال أنس : فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمدنا بها.. وأمرنا بها ولم يدع غشا .. أو قال عيبًا .. أو قال شيئًا إلا حذرناه ونهانا عنه .. ويكفى من ذلك كله هذه الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال معاذ:

«أوصانى رسول الله ﷺ فقال:

يا معاذ أوصيك باتقاء اللَّه .. وصدق الحديث .. والوفاء بالعهد.. وأداء الأمانة .. وترك الخيانة .. وحفظ الجار .. ورحمة اليتيم .. ولين الكلام .. وبذل السلام .. وقصر الأمل .. ولزوم الإيمان .. والثقة فى القرآن .. وحب الآخرة .. والجزع من الحساب.. وخفض الجناح .. وأنهاك أن تسب حكيمًا .. أو تكذب صادقًا .. أو تقطع آثمًا .. أو تعصى إمامًا عادلاً .. أو تفسد أرضًا.. وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر .. وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر .. والعلانية بالعلانية»..

فهكذا أدب عباد الله .. ودعاهم إلى مكارم الأخلاق .. ومحاسن الآداب..

ونمضى مع الإمام الغزالى . . وهو يحدثنا عن محاسن أخلاق النبى ﷺ كما جمعها بعض العلماء . . والتقطها من الأخبار . . فنرى أنفسنا أمام صورة مشرقة رسمها لنا هذا العالم الجليل عن أخلاق النبى وفضائله . .

«كان ﷺ أحلم الناس . . وأشجع الناس . . وأعدل الناس . . وأعف الناس . . لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها . . أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه . .

وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار أو درهم . . وإن فضل شيئًا ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل . . لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى محتاج إليه . . لا يأخذ مما أتاه اللّه إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير . . ويصنع سائر ذلك فى سبيل الله . . لا يسأل شيئًا إلا أعطاه . . ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأت شىء . .

وكان يخصف النعل . . ويرقع الثوب . . ويخدم فى مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن . . وكان أشد الناس حياء . . لا يثبت بصره فى وجه أحد . . ويجيب دعوة الحر والعبد . . ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن . . أو فخذ أرنب . . ويكافئ عليها . .

عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين . . وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى . . وقال أنا لا أنتصر بمشرك . . ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلاً بين

اليهود . . فلم يخف عليهم . . ولا زاد على مر الحق . . بل فداه بمائة ناقة . . وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقون به . .

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . ويأكل ما حضر ولا يرد ما وجد . . ولا يتورع عن مطعم حلال . . وإن وجد تمرًا دون خبز أكله . . وإن وجد شواء أكله . . وإن وجد خبز بر أو شعير أكله . . وإن وجد حلوًا أو عسلاً أكله . . وإن وجد لبنًا دون خبز اكتفى به . . وإن وجد بطيخًا أو رطبًا أكله . . لا يأكل متكئًا على خوان . . منديله باطن قدميه . . لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية . . حتى لقى الله - تعالى - إيثارًا على نفسه . . لا فقرًا ولا بخلاً . . يجيب الوليمة . . ويعود المرضى . . ويشهد الجنائز . . ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس . . أشد الناس تواضعًا وأسكنهم فى غير كبر . . وأبلغهم فى غير تطويل . . وأحسنهم بشرًا . . لا يهوله شيء من أمور الدنيا . . ويلبس مرة شملة . . ومرة يرد حبرة يمانيًا . . مرة جبة صوف . . وما وجد من المباح لبس . . وخاتمه فضة . . يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر . . يردف خلفه عبده أو غيره . . يركب ما أمكنه مرة فرسًا . . ومرة بغلة شهباء . . ومرة حمارًا . . ومرة يمشى راجلاً حافيًا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة . . يعود المرضى فى أقصى المدينة . . يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة . . ويجالس الفقراء . . ويؤاكل المساكين . . ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم . . ويتألف أهل الشرف ويبر بهم . . يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . . لا يجفو على أحد . .

يقبل معذرة المعتذر إليه . . يمزح ولا يقول إلا حقًا . . يضحك من غير قهقهة . .

يرى اللعب المباح فلا ينكره . . يسابق أهله . . وترفع الأصوات عليه فيصبر . . وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها . . وكان له عبيد وإماء . . لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس . . ولا يمضى له وقت فى غير عمل له تعالى . . أو فيما لا بد له من صلاح نفسه . . يخرج إلى بساتين أصحابه . . لا يحتقر مسكينًا لفقره وزمانته . . ولا يهاب ملكًا لملكه . . يدعو هذا وهذا إلى اللَّه مستويًا . . قد جمع له السيرة الفاضلة . . والسياسة التامة . . وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . . نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى رعاية الغنم . . يتيمًا لا أب له ولا أم . . فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق . . والطرق الحميدة . . واختيار الأولين والآخرين . . وعاقبة النجاة والفوز فى الآخرة . . والغبطة والخلاص فى الدنيا . . ولزوم الواجب وترك الفضول . . وفقنا الله لطاعته فى أمره . . والتأسى به فى فعله . . آمين يا رب العاملين».

ويحدثنا الغزالى بعد ذلك عن تواضع النبى وزهده ومعاملة أصحابه . . وطريقته فى الحديث . . وفى المأكل والمشرب . . وفى معاملة الناس . . بأسلوب سهل بسيط للغاية . . ثم يعطى صورة لصورته وخلقته ﷺ فيقول:

« كان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالطويل البائن . .

ولا بالقصير المتردد . . بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده . . ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا لإطالة رسول اللّه ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما . . فإذا فارقاه نسبا إلى الطول . . ونسب هو عليه الصلاة والسلام إلى الربعة . . ويقول ﷺ : «جعل الخير كله فى الربعة» . .

أما لونه : فقد كان أزهر اللون . . ولم يكن بالآدم . . ولا بالشديد البياض . . والأزهر هو الأبيض الناصع الذى لا تشوبه صفرة ولا حمرة . . ولا شيء من الألوان . .

ونعته عمه أبو طالب فقال:

وأبيض يستسقى الغمام وجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ونعته بعضهم . . بأنه مشرب بحمرة . . فقالوا إنما كان المشرب بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح . . كالوجه والرقبة . . والأزهر الصافى عن الحمرة ما تحت الثياب منه . . وكان عرقه ﷺ فى وجهه كاللؤلؤ . . أطيب من المسك الأذفر ، وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنه . . ليس بالسبط . . ولا الجعد القطط . . فكان إذا مشطه بالمشط يأتى كأنه حبك الرمل . . وقيل كان شعره يضرب منكبيه . . وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه . . وربما جعله غدائر أربعًا تخرج كل أذن من بين غديرتين . . وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو

سوالفة تتلألأ . . وكان شيبه فى الرأس واللحية سبع عشرة شعره ما زاد على ذلك . .

وكان ﷺ أحسن الناس وجهًا وأنورهم . . لم يصفه واصف إلا شبههْ بالقمر ليلة البدر . . وكان يرى رضاه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته . . وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - حيث يقول:

أمين مصطفى للخير يدعو

كضوء البدر زايله الظلام

وكان ﷺ واسع الجبهة . . أفرج الحاجبين سابغهما . . وكان أبلج بين الحاجبين . . كأن ما بينهما الفضة المخلصة . . وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما . . وكان فى عينيه تمزج من حمرة . . وكان أهدب الأشفار . . حتى تكاد تلتبس من كثرتها . . وكان أقنى المارن . . أى مستوى الأنف . . وكان مفلج الأسنان . . أى متفرقها . . وكان إذا افتر ضاحكًا افتر عن مثل سنا البرق إذ تلألأ . . وكان من أحسن عباد الله شفتين . . وألطفهم ختم فم . . وكان سهل الخدين صلبهما . . ليس بالطويل الوجه . . ولا المكلثم . . كث اللحية . . وكان يعفى لحيته ويأخذ من شاربه . . وكان أحسن عباد الله عنقًا . . لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر . . ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهبًا . . يتلألأ فى بياض الفضة وفى حمرة الذهب . .

وكان ﷺ عريض الصدر . . لا يعد ولحم بدنه بعضًا . . كالمرآة فى استوائها . . وكالقمر فى بياضه . . موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب . . لم يكن فى صدره ولا بطنه شعر غيره . . وكانت له عكن ثلاث يغطى الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان . . وكان عظيم المنكبين أشعرهما . . ضخم الكراديس . . أى رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين . . وكان واسع الظهر . . ما بين كتفيه خاتم النبوة . . وهو مما يلى منكبه الأيمن . . فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس . . وكان عبل العضدين والذراعين . . طويل الزندين . . رحب الراحتين . . سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة . . كفه ألين من الخز . . كأن كفه كف عطار طيبًا . . مسها بطيب أو لم يمسها . . يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها . . ويضع يده على رأس الصبى فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه . .

وكان جميل ما تحت الإزار من الفخذين والساق . . وكان معتدل الخلق فى السمن بدينًا فى آخر زمانه . . وكان لحمه متماسكًا . . يكاد يكون على الخلق الأول لم يمسه السمن . .

وأما مشيته ﷺ . . فكان يمشى كأنه يتقلع من صخر . . ويتحدر من صبب . . يخطو تكفيًا . . ويمشى الهوينى بغير تبختر . . والهوينى تقارب الخطا . . وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

أنا أشبه الناس بآدم صلى الله عليه وسلم . . وكان أبى إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بى خلقًا وخلقًا . .

وكان يقول:

إن لى عند ربى عشرة أسماء . . وأنا أحمد . . وأنا الماحى الذى يمحو بى الله الكفر . . وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد . . وأنا الحاشر يحشر الله العباد على قدمى . . وأنا رسول الرحمة . . ورسول التوبة . . ورسول الملاحم . . والمقضى قضيت الناس جميعًا . . وأنا قثم . . قال أبو النجدى : القثم . . الكامل الجامع واللَّه أعلم» . .

هذه هى الصورة التى كان عليها النبى ﷺ . . يصورها بقلمه الإمام الغزالى . . فيجسد كل الملامح . . حتى ليخيل إلى قارئ القرن العشرين أنه يرسم صورة النبى ﷺ «بالكاميرا» وهذه قدرة هائلة على التعبير . .

ثم يتحدث فى نهاية هذا الجزء من الكتاب عن معجزاته وآياته الدالة على صدقه . .

ثم نراه يطنب فى الحديث عن محاسن النبى وأخلاقه . . وطريقته فى المأكل والملبس وسخائه . . وطريقته فى الحديث . . وعندما يضحك وعندما يغضب . . وعفوه وشجاعته ووفائه . . الخ . .

ومن دراساته المهمة التى يتوقف عندها الإنسان عندما يحدثنا عن

«شرح عجائب القلب» .. لأن فى رأيه من لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه .. فهو ممن قال اللّه تعالى فيه :

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]

فمعرفة القلب وطبيعة أوصافه أصل الدين .. وأساس طريق السالكين ..

* * * * *

ونرى الغزالى يتحدث عن خاصية قلب الإنسان .. ويفرق بين الروح والقلب والنفس .. ثم يقسم مراتب الإيمان إلى ثلاث مراتب..

المرتبة الأولى: إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض..

المرتبة الثانية: إيمان المتكلمين .. وهو ممزوج بنوع استدلال .. ودرجته قريبة من درجة العوام..

المرتبة الثالثة: إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين..

وقد أعجبنى بحث للدكتور / عبدالحليم محمود بعنوان «الإمام الغزالى ومعرفة الغيب» .. وهو فى هذا البحث يقول إن الغزالى لا يرى فى نهج المتكلمين ما يؤدى إلى كشف الحقائق .. إنه يقول

حرفيًا عن هذا الكلام:

« وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق . . ومعرفتها على ما هى عليه . . وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . .

ولعل التخبط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف . . وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى . . ربما يخطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا . . فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه . . بعد حقيقة الخبرة . . وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين . . وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجة مسدود » . .

ويرى فى موضع آخر أن المتكلم لا يزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام . . ولأجله سميت صناعته كلامًا . .

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى . . وهو مقصد الطالبين ومطمح نظر الصديقين . . إنها مشاهدة روحية . . إنها يقين مطلق . . إنها المشاهدة . . بنور اليقين . .

ولكن مشاهدة ماذا؟

ويقين فى ماذا ؟

وما هو موضع هذه المرتبة . . إنه - إذا أردنا الإجمال - الغيب . . أما إذا أردنا شيئًا من التفصيل فإنه فى أمور كثيرة كأنه يسمع

المعارف من قبل أسمائها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة . . فتتضح إذ ذاك . . وتحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وتعالى . . وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ووجهة ترتيبه الآخرة على الدنيا . .

ولمعرفة معنى النبوة . . والنبى . . ومعنى الوحى . . ومعنى الشيطان . . ومعنى لفظ الملائكة . . وكيفية معاداة الشياطين للإنسان . . وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحى إليهم والمعرفة بملكوت السموات والأرض . . ومعرفة الغيب . . وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه . . ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . . ومعرفة الآخرة . . والجنة والنار . . وعذاب القبر والصراط . . والميزان . . والحساب . . ومعنى قوله تعالى:

﴿ **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ** ﴾ [الإسراء: ١٤].

ومعنى قوله تعالى:

﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ومعنى لقاء الله – عز وجل – والنظر إلى وجهه الكريم . . ومعنى القرب منه . . والنزول فى جواره . . ومعنى حصول السعادة . . بمرافقة الملأ الأعلى أو مقارنة الملائكة والنبيين . . ومعنى تفاوت أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض . . كما يرى الكوكب

الدرى فى السماء . . إلى غير ذلك مما يطول تفسيره . .

وذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته دون جدوى المتكلمون والفلاسفة . . ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح فقد اختلفوا فيه . .

لقد اختلفوا فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها، مقامات شىء . .

فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة . . وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة . . وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها . .

وكذلك يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله - عز وجل - الاعتراف بالعجز عن المعرفة . .

وبعضهم يرى أمورًا عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل . .

وبعضهم يقول : حد معرفة اللَّه عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام . . وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم . .

اختلف الناس هذا الاختلاف لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح فى معرفة الغيب . . وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة . . ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع الغطاء حتى تتضح للإنسان جلية

الحق فى هذه الأمور اتضاحًا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه.. وهذا ممكن فى جوهر الإنسان «الإحياء» أهذا ممكن حقًا فى جوهر الإنسان؟

إنها دعوى من الإمام الغزالى تحتاج إلى إثبات .. وهى دعوى ينكرها الكثيرون..

ولكن الإمام الغزالى يرى أن الدليل القاطع .. الذى لا يقدر أحد على جحده أمران أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة .. فإنه ينكشف بها الغيب .. وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضًا فى اليقظة .. فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس .. وعدم اشتغالها بالمحسوسات .. فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه..

والثانى : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور فى المستقبل.. وإذا جاز ذلك للنبى ﷺ جاز لغيره .. إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور .. وشغل بإصلاح الخلق .. فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق .. ولا يشتغل بإصلاح الخلق .. وهذا ما يسمى نبيًا .. بل يسمى وليًا .. فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيات الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة .. أو بتعبير آخر أن يقر بباب القلب ينفتح على عالم الملكوت .. هو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى..

والإمام الغزالى يتشبث بالرؤيا كبرهان ودليل على أن هناك آلة

للمعرفة غير الحس والعقل، ويردد ذلك فى كثير من كتبه . . إنه يتحدث فى المنقذ عن النبوة فيقول:

« وقد قرب اللَّه - تعالى - ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجًا من خاصيته النبوة وهو النوم . . إذا النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحًا وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير . . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه . . وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًا عليه كالميت . . ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب . . لأنكره وأقام البرهان على استحالته . . وقال القوى الحساسة أسباب الادراك . . فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها . . وحضورها . . فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق . . وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة» . .

ولكن الغزالى لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال . . بل يأتى بشواهد الشرع . . ويذكر التجارب والحكايات . . أما الشواهد - فيما يرى - فهى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقوله سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]
قيل نور يفرق به بين الحق والباطل. . ويخرج به من الشبهات. .

وقوله ﷺ :

« من عمل بما علم ورثه اللّه علم ما لا يعلم » . .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

أما هذا الشرح فقال:

«هو التوسعة . . إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح» . .

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين، وإن عمر ملهم» . .

والمحدث هو الملهم . . والملهم هو الذى انكشف له الحق فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجية . .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف . . ولم يكن علم الخضر عليه الصلاة والسلام علما حسيًا ، أو عقليًا ، وإنما هو العلم الربانى . . وإليه الإشارة . . ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] . .

كيف تنجلى البصيرة؟

كيف يتأتى الكشف والإلهام والنفث فى الروع؟

كيف تتأتى معرفة الغيب معرفة مباشرة؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها . . والإقبال بكل الهمة على اللّه تعالى . .

ومهما حصل ذلك كان اللّه هو المتولى لقلب عبده . . والمتكفل بتنويره بأنوار العلم . .

وإذا تولى اللّه أمر القلب فاضت عليه الرحمة . . وأشرق النور فى القلب . . وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة . . وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . .

فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة . . وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام . . والترصد بدوام الإنتظار لما يفتحه اللّه - تعالى - من الرحمة . .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة والكتب . . بل بالزهد فى الدنيا . . والتبرى من علائقها . . وتفريغ القلب من شواغلها . . والإقبال بالكلية على اللّه تعالى . . فمن كان للّه كان اللّه له . .

وهو بفعله هذا يصير متعرضًا لنفحات رحمة الله . . وليس له اختيار فى استجلاب هذه النفحات . . وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة . . كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة . .

وإذا صدقت إرادته . . وصفت همته . . وحسنت مواظبته تلمع لوامع الحق فى قلبه . . ويرتفع الحجاب بلطف خفى من اللّٰه تعالى . . فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين (الإحياء) . .

وهذا النهج الذى رسمه الإمام الغزالى له آثار عميقة بالنسبة إلى الفرد وبالنسبة إلى المجتمع . . وبالنسبة إلى الدين . .

وبعد هذا الشرح البسيط الذى شرحه الإمام الأكبر فى توضيح وجهة نظر الغزالى . .

فالغزالى كما عرفنا قد عرف طريقه . . وطريقه هو طريق أهل التصوف . . ونرى ذلك وصفًا مفصلاً فى كتابة الإحياء . .

وإذا ما عرجنا مع أفكاره . . رأيناه يفصل كل شىء من العادات الحسنة التى ترفع من مستوى الإنسان أمام نفسه وأمام خالقه . . وأمام المجتمع . .

وإذا كان من الصعب تلخيص ما كتب فهذا أمر فى غاية الصعوبة . . ولكن سنقف أمام لقطة من لقطاته الأخلاقية . . وهو يرسم كيف يسير الإنسان على هدى من دينه . . مستمدًا كل هذه الأخلاق الكريمة . . لا من فلاسفة الإغريق . . ولا من شطحات الفلاسفة . . ولا من خيال الشعراء . . ولكن من وحى الرسالة الإسلامية الخالدة . .

إنه مثلاً يتحدث عن اللسان . . كيف يكون فيه السعادة أو الشقاء . . الأمل والألم . . القدوة الحسنة أو الشر المستطير . .

وتعالَ معى فى جولة مع أفكاره حول هذا العضو فى الإنسان وما له من أثر فى حياته..

اعلم أن خطر اللسان عظيم .. ولا نجاة من خطره إلا بالصمت.. فلذلك مدح الشرع .. وحث عليه .. قال ﷺ :

« من صمت نجا »..

وقال ﷺ:

« الصمت حكم وقليل فاعله » .. أى حكمة وحزم ..

وروى عبداللَّه بن سفيان عن أبيه قال:

قلت يا رسول اللّه أخبرنى عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدًا بعدك ..

قال : قل آمنت باللَّه ثم استقم..

قال : قلت : فما التقى؟

فأومأ بيده إلى لسانه..

وقال عطيه بن عامر:

قلت : يارسول اللَّه ما النجاة؟

قال : أمسك عليك لسانك .. وليسعك بيتك وابك على خطيئتك ..

وقال سهل بن سعد الساعدى:

قال رسول اللّه ﷺ : من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة..

وقال ﷺ : من وقى شر قبقه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله.. القبقب (البطن) .. والذبذب (الفرج) واللقلق (اللسان)..

فهذه الشهوات الثلاث بها مهلك أكثر الخلق .. ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين .. البطن والفرج..

وقال رسول اللّه ﷺ عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال:

« تقوى اللّه .. وحسن الخلق»..

وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال:

الأجوفان .. الفم والفرج .. فيحتمل المراد الفم آفات اللسان لأنه محله .. ويحتمل أن يكون المراد به البطن منفذه..

فقد قال معاذ بن جبل:

قلت : يا رسول اللّه أنأخذ بما نقول؟

فقال : ثكلتك أمك يا ابن جبل .. وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!

ويقول فى هذا الفصل أيضًا:

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رأى أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - وهو يمد لسانه بيده . . فقال : ما تصنع ياخليفة رسول اللَّه ؟!

قال : هذا أوردنى الموارد . . إن رسول اللَّه ﷺ قال: ليس شىء إلا ويشكو إلى اللَّه اللسان على صدقه . .

وفى هذا الباب يورد أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ فى فضل الصمت . . وألا يكون اللسان سببًا فى خلق المشاكل للإنسان فى دنياه . . وأن يكب بسببه فى الجحيم أيضًا . .

وما دام اللسان هو الذى يقود الإنسان إلى الخير أو الشر . . فإنه يتحدث عن آفات اللسان . . فيورد فصولاً . . ويفصلها تفصيلاً كاملاً حول هذه الآفات . . نلخصها فيما يلى:

- الكلام فيما لا يعنيك . .

- فضول الكلام . . وهو أيضًا مذموم . . وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة . .

ولنسر أيضًا مع حجة الإسلام الإمام الغزالى لنغترف من هذا المعين الذى لا ينضب . . معين هذا العلم الفياض . . إننا مثلاً عندما نتصفح الإحياء . . نقف عند الفصل الذى أورده كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا . . فهو يتحدث مثلاً عن شواهد الشرع فى حب اللَّه - تعالى - فيقول:

«اعلم أن الأمة مجتمعة على أن الحب للَّه تعالى ورسوله ﷺ فرض .. وكيف يفرض مالا لا وجود له؟! وكيف يفسر الحب بالطاعة.. والطاعة تبع الحب وثمرته؟! فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب .. ويدل على إثبات الحب للَّه تعالى قوله عز وجل ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾ [المائدة: ٥٤]..

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّه﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهو دليل على إثبات الحب .. وإثبات التفاوت فيه .. وقد جعل رسول الله ﷺ الحب للَّه شرطًا من شروط الإيمان فى أخبار كثيرة..

إذ قال أبو رزين العقيلى:

« يا رسول اللَّه .. ما الإيمان ؟ »؟!

قال : « أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليك مما سواهما»..

وفى حديث آخر:

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين ».. وفى رواية « ومن نفسه »..

وقال رسول الله ﷺ فى دعائه:

« اللهم ارزقنى حبك .. وحب من أحبك .. وحب من يقربنى إلى حبك .. واجعل حبك أحب إلىَّ من الماء البارد »..

ثم يروى حكايات حدثت مع النبى . . ومع أنبياء اللَّه . . توضح للقارئ الفائدة العظمى التى يجنيها العبد المؤمن بحبه للَّه ورسوله:

فيورد مثلاً : أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

« يا رسول اللَّه متى الساعة؟». .

قال: «وماذا أعددت لها؟»

فقال: «ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام . . إلا أنى أحب اللَّه ورسوله». .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« المرء مع من أحب» . .

ثم يتحدث عن منازل الحب والمحبين . . وأرقى أنواع هذا الحب الذى يحب اللَّه حبًا فى ذات اللَّه . . لا طمعًا فى جنة . . ولا خوفًا من نار . . كحب رابعة العدوية التى عبرت عن هذا المعنى فى قولها:

أحبك حبين حب الهوى

وحبًا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى

فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له

فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

والغزالى يأخذنا فى رحلته تلك مع الحب .. حب العارفين باللَّه.. فيقول:

« فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه .. فهى قرة العين .. التى لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها .. فإذا حصلت امحقت الهموم.. والشهوات كلها .. وصار القلب مستغرقًا بنعيمها .. فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه .. ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه .. وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية.. وليت شعرى من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه اللَّه تعالى ؟

وماله صورة ولا شكل .. وأى معنى لوعد اللَّه - تعالى - به عباده.. وذكره .. أنه أعظم النعم .. بل من عرف اللَّه عرف أن اللذات المقرنة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

كانت لقلبى أهواء مفرقة

فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فصار يحسدنى من كنت أحسده

وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تـركـت للنــاس دنيــاهـم ودينـهم
شغــلاً بذكــرك يا ديـنى ودنيــائى

ولذلك قال بعضهم :

وهجـــره أعظــم مـــن نـــار
ووصـــله أطـــيب مـــن جنـــة

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة اللَّه - تعالى - على لذة الأكل والشرب والنكاح . . فإن الجنة معدن تمتع الحواس . . فأما القلب فلذاته فى لقاء اللَّه فقط» . .

إن الحديث مع الغزالى وعن الغزالى ممتع للغاية . . وكل صفحة من صفحات كتبه عبارة عن سياحة رائعة فى فهم الدين بطريقة واعية مستنيرة . . إنه يحدثك عن القبر وعذابه . . والخوف من اللَّه . . فترتعد الفرائص . . ويشعر القلب برهبة الخوف من اللَّه . . وضرورة تجنب محارمه حتى نصل إلى النعيم الذى وعد به عباده المتقين.

ويحدثك عن الفضائل التى يجب أن يسير على هداها الإنسان . . فيحن الإنسان أن يكون هذا المثل العظيم لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان . .

ويحدثك عن الجنة ونعيمها . . فيكاد الإنسان يتذوق ما فيها من نعيم أعد للمتقين . . ويكاد يتجسم أمام الإنسان صورة عن هذا العالم الآخر وما فيه من طيبات اللَّه وأنعمه . .

ثم يحدثنا عن الحب والزهد . . والتصوف . . وحب اللّه . . فيكاد الإنسان أن يطير شوقًا . . وأن يصبح واحدًا من هؤلاء الذين لا يلهيهم لهو أو تجارة . . أو جاه أو سلطان عن معرفة اللَّه . . والقرب منه ليتذوق مثل ما يتذوق هؤلاء الذين أداروا ظهورهم للدنيا الفانية واتجهوا بكل كيانهم إلى اللَّه جل علاه . .

إن للغزالى هذه القدرة العجيبة فى الترغيب والترهيب . . بما يسوقه من حجج مستمدة من القرآن الكريم . . ومن سنة النبى ﷺ إنه بحق حجة الإسلام . .

* * * * *

٤ - الغزالى والسياسة

عرفنا أن عصر الغزالى كان عصرًا مليئًا بالشيع المختلفة . . والمذاهب المتنافرة والصراع السياسى بين العباسيين والشيعة . . بجانب ما امتاز به هذا العصر من مناقشات ومجادلات فى شئون الفكر والفلسفة والدين . .

وعرفنا أن الغزالى كان قريبًا من الوزير نظام الملك الذى كان معجبًا بالغزالى . . والذى كان سببًا فى أن يعمل بالتدريس فى المدرسة النظامية . . فكان من الطبيعى أن يكون . . وهو القريب إلى الوزير نظام الملك أحد وزراء الملوك السلاجقة . . فهنا لا يكون غريبًا أن يهتم بأمور السياسة . . حتى إننا رأينا أن نفسية الإمام الغزالى قد تأثرت بشكل ملحوظ عندما قتل هذا الوزير . . كما أنه ألف كتابه «المستظهرى» الذى يرد فيه على الباطنية بأوامر الخليفة العباسى . . ومعنى هذا أنه كان يقوم بدور سياسى فى هذه الفترة . . عندما يكشف النقاب عن ضلال هؤلاء الناس . . وبعدهم عن الشريعة الإسلامية . . قد كان الخليفة العباسى غاضبًا عليهم . . وغير راضٍ عن أفكارهم وتصرفاتهم . . وما يقومون به من شغب واضطراب فى أنحاء البلاد . .

إن الغزالى يرى أن هناك علاقة أكيدة بين السياسة والدين لا انفصال بينهما . . فالإسلام دين ودنيا . . حياة وآخرة . . يرسم

سلوك الإنسان تجاه خالقه . . وتجاه نفسه . . وتجاه المجتمع، لأن الإسلام يحدد عن طريق العبادات العلاقة بين الإنسان وخالقه . . ويحدد عن طريق الفقة العلاقة بين الإنسان وخالقه . . وبين الإنسان والمجتمع . . فقد حدد نظام المواريث . . والعلاقة الزوجية . . والطلاق وحقوق كل إنسان تجاه الآخر بصورة رائعة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله . . ومن هنا فلا انفصال بين الدين والدنيا . . بين الدين والسياسة . . وهذه الفلسفة السياسية يرسمها فى كتابه «فاتحة العلوم»:

«إن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا . . ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا . . فإن الدنيا مزرعة الآخرة . . وهى الآلة الموصلة إلى الله تعالى لمن اتخذها آلة وممرًا . . ولم يتخذها وطنًا ومستقرًا . . وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وصناعتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام:

أحدها أصول لا قوام للعالم دونها وهى أربعة:

الزراعة وهى للمطعم . . والحياكة وهى للملبس . . والبناء وهو للمسكن . . والسياسة وهى للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها . .

القسم الثانى : ما هى مهيأة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة فإنها تخدم الزراعة . . وجملة من الصناعات بأعداد آلاتها . . كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بأعداد محلها . .

القسم الثالث: ما هى مزينة للأصول مرتبة لها ، كالطحن والخبز للزرعة وكالقصارة والخياطة للحياكة ».

والسياسة لها أربع مراتب فى نظر الغزالى . .

« الأولى: وهى العليا . . سياسة الأنبياء وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا فى ظاهرهم وباطنهم . .

الثانية : سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا لكن على ظاهرهم لا على باطنهم . .

والثالثة : سياسة العلماء باللّه وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء . . وحكمهم على باطن الخاصة فقط . . ولا يرتفع العامة إلى الاستفادة منهم . . ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظاهرهم بالإلزام والمنع . .

والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العامة فقط . . وأشرف هذه المقامات بعد النبوة إفادة العلم . . وتهذيب نفوس الناس على الأخلاق المذمومة المهلكة . . وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة . . وهو المراد بالتعليم . . »

ومن هذا النص يتضح ربط الأخلاق بالسياسة فى نظر الإمام الغزالى . .

وهو يرى أيضًا أن الشريعة الإسلامية قد أوجدت الحلول للمشاكل التى تواجه الإنسان فى حياته . . فهو يقول فى كتابه «فاتحة العلوم»:

« فاعلم أن اللّٰه - تعالى - أخرج آدم من التراب . . وأخرج ذريته من سلالة من ماء دافق . . وأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام . . ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر . . ثم إلى الجنة أو إلى النار . . فهذا مبدأ هام . . وهذه غايتهم . . وهذه منازلهم . . وخلق الدنيا زاد للميعاد . . ليتناولوا منها ما يصلح للتردد . . فلو تناولوا منها قدر الزاد بالعدل . . لانقطعت الخصومات . . وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات . . وضاقت أعيان الأموال والأنفس عن الوفاء بجميع الشهوات . . فتولد منها الخصومات . . فمست الحاجة إلى تمهيد فى بيان حدود الاختصاصات بالمنكوحات والمقطوعات وسائر المطلوبات الدنيوية . . وهو العلم الذى يتولى الفقيه بيانه فى ربع المعاملات والنكاح والجراح . . ومست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ويحملهم على الحدود الفاصلة للاختصاصات . . فالفقيه هو العالم بقانون السياسة . . وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات . . فالفقيه هو معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق . . لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا، ووجه تعلقه بالدين أن الدنيا منزل من منازل الآخرة . . بل هى مزرعة الآخرة . . ولا يهم الدين إلا بالدنيا . . ولذلك قيل الدين . . والملك توأمان الدين أصل والسلطان حارس . . وما لا أصل له فمهدوم . . وما لا حارس له فضائع » . .

والغزالى يرى أن المسلم لا بد أن يتوافر له الصحة والمسكن المناسب . . والحياة الاجتماعية السليمة حتى يتمكن من الحصول على

العلم . . وحتى يتمكن من العمل . . ولا بد للمجتمع أن يكفل للمؤمن حاجته الشخصية والاجتماعية . . ومن هنا يتم التفاعل والتكامل بين الفرد والمجتمع . . أو بين المواطن والدولة . . ولكى تحقق الدولة للفرد الأمن والأمان لا بد أن تكون عندها الهيمنة على الأفراد . . لأن اللَّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . .

وبالطبع . . فالغزالى عندما يتحدث عن قوة السلطان وضرورة سيطرته على الأفراد . . إنما قال ذلك حتى يستتب الأمن فى ظل المجتمع ولا تحدث الفتنة ما تحدثه من تفريق الكلمة . . وبث الذعر والفوضى بين الناس . . فلا بد أن يتحقق الأمن والأمان للناس من خلال حكم السلطان . . وهذه مهمة السياسة . .

ولهذا قيل الدين والسلطان توأمان . .

ولهذا قيل الدين أس . . والسلطان حارس . . وما لا أس له فمهدوم . . وما لا حارس له فضائع . . وعلى الجملة يتساوى العاقل فى أن الخلق على اختلاف طبقاتهم . . وما هم عليه من تشتيت الأهواء . . وتباين الآراء . . ولم يكن لهم رأى مطاع يجمع شتاتهم هلكوا عن آخرهم . . وهذا داء لا علاج له إلا بسلطان قاهر يجمع شتات الآراء . . فبان أن السطان ضرورى فى نظام الدنيا . . ونظام الدنيا ضرورى فى نظام الدين . . ونظام الدين ضرورى فى الفوز بسعادة الآخرة . . وهو مقصود الأنبياء قطعًا . . فكان وجوب الإمام من ضروريات الشرع الذى لا سبيل إلى تركه . . فاعلم ذلك من كتابه «الاقتصاد فى الاعتقاد» . .

إذن . . فالغزالى يرى ضرورة وجود الحاكم القوى القاهر لا لأنه يريد حاكمًا ظالمًا مستبدًا . . ولكن الحاكم العادل الذى يتخذ من القوة وسيلة الأمن والأمان بين الناس . . وأن يكون حاكمًا عادلاً عاملاً بكتاب اللّه . . لأن اللّه سيجزيه خيرًا إذا حكم بالعدل . . وسينال جزاء من العقاب إذا حاد عن طريق العدل . . وهو يعتمد فى ذلك على حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه :

« عدل السلطان يومًا واحدًا أفضل من عبادة سبعين عامًا » . .

ويعود الغزالى إلى الصفات التى يجب أن يتسم بها الحاكم . . وهى العدل والبعد عن الطمع . . والترفق بالناس . . وأن يقضى حاجات المحتاجين . . وألا يتسلط على أحد بسلطانه . . وأن لا يحيد عن شرع اللّه . . وأن يجتهد . . ولا معصية للخالق من أجل مخلوق . .

وقد شرح الغزالى شروط الإمامة وهى:

البلوغ - العقل - الحرية - الذكورية - ونسب قريش - وسلامة حاستى السمع والبصر . .

كما أنه يجب أن تتوافر فيه أربع صفات مكتسبة وهى:

النجدة - والكفاية - والعلم - والورع . .

وقد كان واضحًا أن الغزالى كان يدافع عن الخليفة العباسى . . لأنه كان يريد أن يعم الأمن واستقرار الأوضاع فى البلاد . . وخاصة

أنه فى عصر الغزالى كانت الفتن تطل برءوسها من ناحية . . كما أن بوادر الأطماع الأجنبية كانت قد بدأت فى الظهور . . فقد ظهر الصليبيون وأطماعهم فى استعمار فلسطين . . وهذا ما حدث بالفعل فى فترة تصوف الغزالى . . عندما وصل الصليبيون فلسطين . . واستولوا على بعض المدن فى سواحلها . . وهذا الدور الصليبى . . قد تزايد فيما بعد . . حتى تمكن العرب من التخلص منهم نهائيًا فى عهد صلاح الدين الأيوبى . .

ومهما يكن من شىء . . فواضح أن الغزالى لم يهرب من الإدلاء برأيه فى الأمور السياسية . . فقد كتب كثيرًا عن السياسة . . وعن واجب أن يكون السلطان وسيلة لنشر العدالة بين الناس . . وأن يحكم بكتاب اللّه وسنة رسوله . . ولا يحيد عن ذلك مهما كانت الأمور . .

ولقد عاب البعض على الغزالى أنه لم يقل رأيه فى الحملات الصليبية التى غزت فلسطين . . واستنتج بعضهم أنه كان مشتغلاً بالتصوف . . وابتعد عن السياسة وخاصة بعد قتل نظام الملك الذى حزن عليه حزنًا شديدًا . . وأغلب الظن أن الغزالى ربما كان أعلن رأيه ولم يسجل . . لأنه كان فى مرحلة الزهد والانقطاع عن الدنيا أو أنه عبر عن رأيه . . ولم يصل إلينا . . ولكن من خلال دراسة هذه الشخصية ودورها الفكرى الخطير . . يمكن أن نقول إن الغزالى كان ساخطًا عليهم . . لأنهم كانوا يشكلون خطرًا جسيمًا على الإسلام . .

وليس من المعقول .. ولا من المنطقى أن يرضى حجة الإسلام .. عن جيوش جاءت لتقضى على الإسلام .. المنطق يقول ذلك .. وتاريخ الرجل ومواقفه تقول ذلك .. فهو لم يخش أحدًا عندما تحدث عن مهمة الحاكم ودوره فى الحفاظ على أمن المواطن .. وعلى رعاية الدين .. ومسئوليته عما يصيب رعاياه من ظلم من يوكلهم بالحكم على المسلمين .. كما دخل معارك حادة .. وخاض مساجلات رهيبة مع الفلاسفة وعلماء الكلام .. انطلاقًا من إيمانه العميق .. بأن دوره هو حماية الإسلام من كل من يحاول أن يوقع ضررًا بالعقيدة .. باسم الفلسفة .. أو تحت أى اسم آخر كان يراه الغزالى بعيدًا عن الإسلام .. وروح الإسلام..

فليس من المعقول إذن أنه آثر الصمت إزاء الحملات الصليبية المذكورة التى جاءت من أجل كنوز الشرق .. وسحر الشرق .. لا من أجل حماية الصليب كما كانوا يزعمون..

* * * * *

٥ - الفقيه والشاعر

إن جوانب شخصية الغزالى متعددة . . فهو وإن لم يكن صاحب مذهب فى الفقة كأبى حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل والشافعى . . فإنه رغم انتمائه للمذهب الشافعى وتعمقه فيه ودراسته للفقه دراسة واعية متعمقة . . له اجتهادات فقهية كثيرة . . ولعل ابن السبكى فى إلقائه الضوء على الغزالى يعطى لنا صورة عن هذا الجانب العلمى من حياة الغزالى . .

له فى المذهب «يقصد الإمام الشافعى» البسيط . . والوسيط . . والوجيز . . والخلاصة . . وفى سائر العلوم كتابه إحياء علوم الدين . . وكتاب الأربعين . . وكتاب الأسماء الحسنى والمستصفى فى أصول الفقه . . والمنخول فى أصول الفقه . . ألفه فى حياة أستاذه إمام الحرمين . . وبداية الهداية . . والمآخذ فى الخلافيات . . وتحصين المآخذ . . وكيمياء السعادة بالفارسية . . والمنقذ من الضلال . . والبيان المنتحل فى الجدل . . وشفاء العليل فى بيان مسائل التعليل . . والاقتصاد فى الاعتقاد . . ومعيار النظر . . وبيان القولين للشافعى . . ومشكاة الأنوار . . والمشكاة فى الرد على الباطنية . . وتهافت الفلاسفة . . والمقاصد فى بيان اعتقاد الأوائل . . وهو مقاصد الفلاسفة وإلجام العوام عن علم الكلام . . والغاية القصوى . . وجواهر القرآن وبيان فضائح الإمامية . . والمختصر الأخير . . وكتاب ميزان العمل وكتاب أسرار معاملات الدين . .

والغزالى الفقيه نراه يتعمق ثلاثة اتجاهات:

- أصول الفقه.
- الفروع الفقهية.
- أسرار التشريع.

فإذا ما نظرنا إليه كعالم مجتهد .. فلا بد أن نعرف الغزالى كمجتهد .. والاجتهاد كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة بذل الفقيه وسعه فى استنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية .. والأحكام العملية تقابل العقائد .. فالاجتهاد الفقهى خاص بالأحكام العملية.. والأدلة التفصيلية هى نصوص القرآن والسنة ومواضع الإجماع .. ويعرف بعض الفقهاء الاجتهاد فى الاصطلاح بأنه بذل الجهد وغاية الوسع .. إما فى استنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية .. وإما فى تطبيقها..

ونسير مع الشيخ أبو زهرة فى دراسته القيمة عن الغزالى الفقيه:

وعلى هذا التعريف يكون الاجتهاد قسمين:

أحدهما خاص باستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها..

وثانيهما تطبيق العلل التى وصل إليها العلماء على أنها أساس الأحكام .. ويسمى ذلك تحقيق المناط .. والمجتهدون من هذا النوع الأخير هم علماء التخريج فى المذاهب .. عملهم هو تطبيق ما استنبطه السابقون بعلله .. وعن طريقها يمكن أن تعرف أحكام المسائل

التى لم يعرف لأصحاب الاجتهاد الأول رأى فيها . . فيتعرف الحكم على ضوء اجتهادهم . . وأصحاب كل مذهب يستخرجون أحكام ما يجد على ضوء ما قرره إمام هذا المذهب . .

والاجتهاد الأول هو الاجتهاد الكامل . . وقال بعض العلماء إنه لا يصلح أن يخلو منه عصر . . وعلى هذا أكثر الحنابلة . . وقد اتفق العلماء على أنه لا يصح أن يخلو عصر من العصور من الفرع الثانى من الاجتهاد . . وهو تطبيق علل الأحكام على كل الحوادث التى تكون منها . .

وكلام الغزالى فى الاجتهاد مقصور على النوع الأول . . ولذا عرف الاجتهاد بأنه بذل الفقيه وسعه فى طلب الحكم بأحكام الشريعة . .

ولا شك أن الغزالى . . رغم أنه اعتنق المذهب الشافعى . . فإنه تقبله بعد أن درسه دراسة متعمقة . . وكانت له إرادته الصائبة . . فهو فقيه متمكن من أصول دينه . . ومن أحكام الشرع الحنيف . . ملمًا بالأحاديث وأسانيدها . . عالمًا بقواعد الاجتهاد . . فاهمًا لما ينبغى أن يكون عليه الذى يتصدى للفتوى . . ملمًا بكتاب الله وسنة رسوله . . فاهمًا عن وعى وعمق . . ومن هنا كانت اجتهاداته الفقهية على درجة تتناسب مع اللقب الذى أطلق عليه . . وهو حجة الإسلام . .

وأنه على حد تعبير الشيخ محمد أبو زهرة :

« فهذا الفقيه الغزالى . . عميق النظر فى فقهه . . يجتهد ويتبع . . ولا يقلد ولا يبتدع . . وهو فيلسوف فى فقهه . . لا يجمد على تفكير . . فقد رأيناه فى أصول الفقة فيلسوفًا بين الفقهاء . . وفى فروعه محققًا يتتبع الدليل ولا يتبع الأشخاص . . يخالف إمامه الشافعى أو يوافقه عن بينة . . وفى الحق أنه فى الفقه أبين أثرًا منه فى عالم الكلام والفلسفة . . ولو لم يشتهر بالكلام والفلسفة لاشتهر بالفقه بين الفقهاء» . .

هذه صورة سريعة عن الغزالى الفقيه . . لأنه لو ركزنا عليه الدراسة كفقيه فهذا وحده يستغرق كتبًا عديدة . . ولكنها مجرد إشارة أصبع . . ونحن نعطى صورة عامة وشاملة عن هذا الإمام العظيم . .

* * * * *

ولا يمكن أن نتحدث عن شخصية الغزالى الفيلسوف . . والغزالى المتكلم . . والغزالى الفقيه . . والغزالى الصوفى دون أن نتحدث عنه كشاعر . . فكتاباته ككتابات عالم يكتب بأسلوب أديب . . وفى كتبه يستشهد كثيرًا بأبيات الشعر . . من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه ، ولكن الغزالى الشاعر . . فهو أمر يكاد يجهله الكثيرون . . رغم أنه قد نسب إلى الغزالى قصيدتان . . إحداهما هائية مطلعها:

ما بال نفسى يظل شكواها

إلى الورى وهى ترتجى اللّه

وهى تتكون من أربعة وستين بيتًا . . والثانية تائية ومطلع هذه القصيدة . .

بنور تجلى وجه قدسك دهشتى

وفيك على أن لاخفا بك حيرتى

وعدد أبيات هذه القصيدة ٣١٦ بيتاً.

ولا أحد يعرف بالضبط هل هاتان القصيدتان من نظم الغزالى أو لا . . إلا أن القصيدة الثانية . . قام بتحليلها الدكتور زكى نجيب محمود فى دراسة عميقة . . وإن كنا نشك كما شك الدكتور زكى نجيب محمود فى نسبها للغزالى لتناقض بعض مضامينها مع فكر الغزالى وفلسفته . . ومع ذلك فهى تستحق الوقوف عند كلماتها . . أو عند بعض أبياتها على الأقل . . لنأخذ مثلاً من القصيدة:

فيا أقرب الأشياء من كل نظرة

لأبعد شىء أنت عن كل رؤية

ظهرت . . فلما أن بهرت تجليًا

بطنت بطونًا كاد يقضى بردتى

فأوقعت بين العقل والحس عند ما

خفيت خلافًا لا يزول بصلحة

إذا ما ادعى عقل وجودك منكرًا

على الحس ما نبغيه قال له اثبت

وذلك أن الحس ينفيك صورة

يراها ويرضى العقل فيك بحجة

فمن هاهنا منشا الخلاف ويصعب الـ

وفاق بخلف فى اقتضاء لحيلة

فإن قلت لم أبصرك فى كل صورة

أراها أحالت ذاك عين بصيرتى

وإن قلت إنى مبصر لك أنكرت

مقالى ولم تشهد بذلك مقلتى

تجليت لى حتى إذا ما ظهرت لى

خفيت خفاء دق عن كل فكرة

وإذا كان الغزالى فى تصوفه قد رفض فكرة الحلول أو الاتحاد أو الوصول . . من هنا نرى البعض ينكر نسبة هذه القصيدة إليه لما تحويه من هذه المعانى . . ومن أمثلة ذلك قوله:

فما فى فضل عنك يخطر فيه لى

سواك فوقتى فيك غير موقت

وقوله :

وهل أنا إلا أنت ذات ووحدة

وهل أنت إلا نفس عين هويتى

وقوله:

إذا غبت عنى كنت عندك حاضرًا

ومن عجب أن غيبتى فيك حضرتى

فيا باطنًا ألقاه فى كل ظاهر

ويا أولاً ما زال آخر فكرتى

. . . .

. . . .

ملأت جهاتى الست تلك فأنت لى

محيط وأيضًا أنت مركز نقطتى

فصرت إذا وجهت وجهى مصليًا

فرايض أوقاتى فنفسى كعبتى

فصار صيامى لى ونسكى وطاعتى

ونحرى وتعريفى وهجرى وعمرتى

وحول طوافى واجب وخلاله

استلامى لركنى فى مناسك حجتى

وذكرى وتسبيحى وحمدى وقربتى

لنفس وتقديس وصفو سريرتى

ولو هم منى خاطر بالتفاتة

لما كان لى إلا إلى تلفتى

ولو لم أؤد الفرض منى إلى لم

يصح بوجه لى ولم تبر ذمتى

وكنت على أن أوحد ظاهرًا

ففى باطنى قد دنت بالثنوية

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود .. أن تلك كلها شواهد دالة على حلول أو اتحاد .. مما يشكك فى نسبها إلى الغزالى ، لكننا لا نستطيع أن نفهمها بالمعنى الذى يصل العارف بالمعروف فتزول دواعى الشك .. وها هو ذا الغزالى يصف طريقة التصوف إجمالاً .. ومن المنقذ من الضلال ..

فيذكر أن أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى اللّه تعالى. . ومفتاحها . . استغراق القلب بالكلية بذكر اللّه . . وآخرها الفناء بالكلية فى اللّه . . فإذا كان أوله استغراق القلب . . وآخره الغناء . . ثم إذا كان ذلك لا يتناقض عنده حالة القرب التى يجعلها طابعًا لتصوفه . . كانت الشواهد التى أسلفناها لا تقضى بالضرورة ألا يكون الغزالى هو ناظم القصيدة . . ومن كلام الدكتور زكى نجيب محمود وتحليله لهذه القصيدة لا يستبعد أيضًا أن يكون هو نظامها حسب التعليل الذى ذكره. .

ومن أجمل كلمات هذه القصيدة هو تصور الشاعر وهو يتأمل نفسه العليا يتودد إليها . . ليفر من نفسه الدنيا:

وقلت لها منى على بنظرة

أنال بها من حسن وجهك منيتى

ألم تعلمى ما حل بى منك من جوى

وكابدت من أشجان قلب ولوعة

فإن الجبال الشم وهى رواسخ

لو احتملت بعض الذى بى لدكت

فأحزان قلبى لا تجود بسلوة

وأجفان عينى لا تسح بدمعة

ولولا حنينى لم تحن مطية

ولولا نواحى لم تنح ورق أيكة

ولولا خطابى لم يقع عين عابد

على لما منى الصبابة أبلت

فلا ماء إلا بعض فيض مدامعى

ولا نار إلا دون أنفاس زفرتى

فقالت : بعينى ما لقيت وإنه

ليؤلم قلبى أن تشاك بشوكة

وإنى على ما فىَّ من صلف إليها

لراغبة فى الوصل أعظم رغبة

ولكن وشاة السوء فيك كثيرة

ولست على الواشين تمكن رؤيتى

وأنت فمغرى بالحسان وإننى

لأكره ما بى أن أرى وجه ضرتى

ومن لم يصنى صنت وجهى ببرقع

وصور فيه صورة دون صورتى

ليمتحن الخطاب لى أن يرونها

أيلهون عنى أم يتمنون خطبتى

وما هى إلا عيدة لى جميلة

تظن وما أفعالها لى بحيلة

فما كان إلا أن رأى الناس وجهها

لها فهاموا بها فى فج وجه ووجهة

وأروع ما فى هذه القصيدة . . تلك الكلمات التى يرى الشاعر فيها الكون كله . . وهو خاشع للَّه جلت قدرته:

تأمل صلاة الشمس عند وقوفها

لدى الظهر فى وسط السماء بخشية

وإثباتها وقت الزوال بركعة

وإتمامها عند الغروب بسجدة

كذا جملة الأفلاك راكعة بما

جرت سجدة للَّه فى كل طرفة

والقصيدة وتحليلها الرائع للدكتور زكى نجيب محمود . . تلقى ضوءًا آخر على شخصية الغزالى . . فهو صوفى . . والصوفى رقيق الإحساس والمشاعر . . ومن هنا من الممكن جدًا أن يكون شاعرًا . .

لأنه أقرب إلى الإمام الشاعر .. ومن هنا أيضًا نجد أن أعظم الأشعار.. وأرقها .. وأجملها .. هى تلك التى ترنم بها المحبون.. والصوفية محبون للّه .. إنه الحب فى أعلى مستوياته .. ولا نجد شعرًا أرق من شعراء الصوفية .. بل يكاد يكون معظم كبار الصوفية من الشعراء .. ابن العربى .. وابن الفارض.. ورابعة العدوية .. وغيرهم .. كلهم شعراء .. يترنمون فى الذات الإلهية بأجمل وأجود ما تجود به القرائح..

وهل يمكن أن نجد أجمل مثلاً من شعر ابن عربى عندما يترنم بحبه فيقول:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى

إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

وقد صار قلبى قابلاً كل صورة

فمرعى لغزلان .. ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة .. ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنَّى توجهت

ركائبه .. فالحب دينى وإيمانى

ورابعة العدوية تعبر عن الحب بقولها:

أحبك حبين.. حب الهوى

وحبًا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى

فشغل بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له

فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاكا لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ونقرأ من أشعار عمر بن الفارض مثلاً:

وقد علموا أنى قتيل لحاظها

فإن لها فى كل جارحة نصل

حديث قديم فى هواها وماله

كما علمت بعد وليس له قبل

وما لى مثل فى غرامى بها كما

غدت فتنة فى حسنها ما لها مثل

والأمثلة كثيرة عن جمال ورقة الشعر الصوفى الذى يهيم فى أودية الحب العميقة .. إنهم يشعرون بنشوة غريبة .. لو علم الملوك بما هم فيه من نعيم لحاربوهم عليه بالسيوف كما قال أحدهم .. إن الحب هو اللذة الكبرى .. هو السعادة الأبدية .. ولا يشعر به ولا يقدره إلا من يعانيه .. لأن التصوف تجربة ذاتية .. عن طريق التأمل والمعاناة والزهد والتقشف والمجاهدة يصل الصوفى إلى ما لا يخطر على بال أحد..

إن من يسمع هذه القصيدة التى قالها الحلاج مثلاً .. فى الذات الإلهية .. لسوف يقف طويلاً أمام رقة المعانى .. وموسيقى الألفاظ.. ناهيك عما كان يشعر بها منشدها وهو غارق فى بحار حبه العميقة:

والله ما طلعت على شمس ولا غربت

إلا ووجهك مقرون بأنفاسى

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم

إلا وأنت حديثى بين جُلاسى

ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا

إلا وأنت بقلبى بين وسواس

ولا هممت بشرب الماء من عطش

إلا رأيت خيالاً منك فى الكاس

ولو قدرت على الإتيان جئتكم

سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس

مالى وللناس كم يلوموننى سفهًا

دينى لنفسى ودين الناس للناس

ومهما اختلفت اتجاهات رجال الصوفية .. فإن الحب الإلهى .. هو منتهى أمل كل مريد .. إنه يريد أن يصل إلى اللَّه .. والوصول إلى اللَّه لا بد أن ينتهى إلى حب..

وكيف لا يكون هذا منتهى آمالهم .. والرسول الكريم ﷺ يقول:

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما»؟

إذن .. ليس من المستبعد أن يكون الإمام الغزالى بجانب كل الصفات التى عرفناها عنه شاعرًا أيضًا..

ومهما يكن من شيء .. فلقد ترك الغزالى مركزًا عظيمًا ممدودًا تعدى حدود زمانه إلى أجيال مختلفة .. وأغلب الظن .. أن سيرة حياته وفكره ستظل إشعاعًا يهدى الناس إلى الطريق القويم .. كلما ذكر الفكر وكلما ذكرت الفلسفة .. وكلما ذكر التصوف ؛ لأنه كان علمًا فى كل هذه الميادين..

* * * * *

٦ - الغزالى بين الأنصار والخصوم

إن من يقرأ ما كتب الغزالى بتمعن . .

ومن يقرأ ما كتبه عنه الدارسون له . . وما كتبه علماء عصره وفلاسفته، سوف يجد نفسه أمام شخصية لها من القوة والمهابة والجلال ما لا يمكن إنكاره . . وسوف يجد - إذا أراد أن يصدر حكمًا موضوعيًا - أن هذا الرجل يعتبر واحدًا من أعظم ما أنجب الفكر الإسلامى . . رغم أن أعداءه حاولوا أن يسلبوه كل ما يميزه كرجل عظيم . . وعالم عظيم . . وإمام من أعظم الأئمة . . وفيلسوف من أعظم الفلاسفة . . رغم أن بعضهم غالى فى عداوته حتى وصفه بالجاهل الشرير . . وقد وصف الغزالى من ابن رشد هذا الوصف . . لأنه فك رموز الفلسفة . . وبسطها للناس حتى كاد يفهمها العامة . . ثم أعلن عليها حربًا شعواء على اعتبار أنها تضل الناس ولا تنفعهم . . وأن الفلاسفة يسيرون فى طريق مسدود لا يوصل إلى الحقيقة . .

فالمهتمون بالفلسفة . . والمؤمنون بها . . لا ينسون هجومه العنيف على الفلسفة . . وعلى الخصوص على الفيلسوفين الفارابى وابن سينا . . فى كتابه « مقاصد الفلاسفة » . . وقد كان هذا الكتاب بمثابة تمهيد لكتابه « تهافت الفلاسفة» . .

إننا نراه يقرر بعد دراسته للفلسفة . . أنها لا تثمر الحقيقة عندما نراه يقول:

« إن الوقوف على فساد المذاهب .. قبل الإحاطة بمداركها محال.. بل هى رمى فى العماية والضلال .. فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلامًا وجيزًا .. مشتملاً على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية والطبيعية والإلهية من غير تمييز بين الحق فيها والباطل.. »

ثم نراه بعد أن ألف هذا الكتاب .. يوجه هجومه العنيف والشامل على الفلسفة .. كاشفًا عما فيها من غموض وزيف .. وبعد عن الواقع .. حتى إننا رأينا من يقول إن الغزالى بحملته على الفلسفة قد قضى عليها فى المشرق العربى .. وجعلها مثالاً للسخرية.. وأصبح الناس يخشونها .. ولا يحاولون الاقتراب منها فترة من الزمن..

ثم رأينا كيف أن الغزالى فى كتابه الضخم « إحياء علوم الدين» والذى يحوى فصولاً فى العبادات .. والتصوف .. والفقه .. يهاجم الفلسفة والفلاسفة .. حتى اعتقد البعض أن قراءة الإحياء تغنى الإنسان عن الكتب الأخرى..

وطبعًا هذه مغالاة من الذين عشقوا فكر الغزالى عشقًا مغالى فيه .. حتى نزهوه عن أى خطأ .. مع أننا يجب أن ننظر إليه كعالم مجتهد .. وفقيه عظيم .. ومفكر من أكبر مفكرى الإسلام .. ولكن آراءه يمكن أيضًا أن تناقش .. ويمكن أن نعارضه فى بعضها لأنه بشر .. والبشر دائمًا عرضة للخطأ .. كما أنه ليس معصومًا .. لأن العصمة لله وحده..

ومهما يكن من شيء . . فإن الغزالى مهما هاجمه الحاقدون فقد أسدى للإسلام أجل الخدمات . . وعاد بالناس إلى المنبع الأصيل للإسلام . . ومنبع الإسلام الأصيل هو الكتاب والسنة . . لقد كان الغزالى كما عرفنا شافعى المذهب . . وكان يرى أن الإنسان لو رأى إنسانًا آخر يطير فى الهواء . . ولا يؤدى الفرائض فهو دجال . . وأن على المسلم الحق أن يواظب على الفرائض التى أقرها الشرع . . ثم إنه بالعبادات والتطهر والمجاهدة يمكن أن يصل إلى اللّه . . وأن تتجلى له من الأنوار والمكاشفات ما لا يخطر على البال . . وأن قلبه يمكن أن يمتلئ بأنوار المعرفة . . فيكشف أستار الغيب . . ويصل إلى مرتبة من العلم اللدنى ما لا يمكن أن يتصوره عقل أو يتناهى إليه خيال . .

وهذا يأتى بالمعاناة والمجاهدة الشخصية وسلوك طريق الله.

ولم يكن من المعقول أن تكون شخصية قوية كشخصية الغزالى . . له هذا المنطق . . وهذه العبقرية . . وهذه القدرة الهائلة فى النقاش . . وإفحام الخصوم . . حتى أصبح علما من أعلام المدرسة النظامية . . وأصبح ملء الأسماع والأنظار . . لا يمكن لشخصية كهذه الشخصية التى هاجمت أهل الفقه الذين يتقربون إلى الحكام طمعًا فى الولاية . . أو طمعًا فى جاه . . أو منصب . . فصب عليهم الغزالى هجومًا عنيفًا ضاريًا . . ما كان لمثل هذه الشخصية إلا أن نجد لها كارهين وحاسدين . .

فقد كرهه الفلاسفة . .

وكرهه بعض رجال الفقه . .

كما كرهه الذين اكتشف الغزالى تنكرهم فى أزياء التقوى والصلاح وما هم بأتقياء ولا صالحين . .

لقد وهب نفسه للكشف عن الحقيقة والبعد عن الزيف . .

كما ركز جهده على محاربة المدعين . . فى الفكر . . والحياة . . وكل هذا قطعًا جر عليه حسد الحاسدين وكره الكارهين . . إنه يرسم لما أعد نفسه له فى كتابه «المنقذ من الضلال»، فيقول:

« ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن . . وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور . . لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة . . وأتهجم على كل مشكلة . . وأقتحم كل ورطة . . وأتفحص عقيدة كل فرقة . . وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة . . لأميز بين محق ومبطل . . ومتفنن ومبدع . . لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على بطانته . . ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته . . ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كفة فلسفته . . ولا متكلمًا إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . . ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته . . ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته . . ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته . .

وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول

الأمر وريعان عمرى وغريزة وفطرة من الله - تعالى - وضعها فى جبلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد الصبا» . .

واضح من الكلام . . أننا أمام فارس من فرسان الفكر . . لا يريد أن يفوته شيء إلا ويعرف عنه كل شيء . . يريد أن يعرف أسرار المذاهب والأفكار والنحل والملل . . الذين اهتدوا والذين ضلوا . . والذين وفقوا . . والذين فشلوا . . إنه يريد أن يعرف الحقيقة . . ولكى يعرف الحقيقة لابد أن يدرس كل ما حوله . . ويتحقق منه على معرفة ثم يصدر حكمه . .

إنسان بهذه الشجاعة العقلية كان لا بد أن يكون له حساده . . وأعداؤه . . لأنه إنسان قرر أن يضع لنفسه قاعدة متينة ينطلق منها لمعرفة ما حوله من الأشياء . . إنه ليس عبدًا للقديم المتوارث . . ولكن لابد أن يفحص كل شيء ثم يدرسه . . ثم يطلق أحكامه . . كشأن أى مجتهد . .

وليس معنى هجوم الغزالى على الفلاسفة والفلسفة أنه لم يكن فيلسوفًا . . وإنما كان على حد تعبير ابن العربى - وهو من أصحابه - « شيخنا أبو حامد دخل فى بطون الفلاسفة . . ثم أراد أن يخرج منها فما قدر »

وأعتقد أن الغزالى . . وقد شك شكًا منهجيًا ليصل إلى اليقين . . ودرس الفلسفة الإغريقية وقارن بينها وبين الفلسفة الإسلامية . . ثم

أراد أن يدافع عن الإسلام بأساليب الفلاسفة. . حتى أصبح حجة الإسلام. .

ومن هنا كان تفلسف الغزالى من أجل الدفاع عن الإسلام . . ومن هنا كان كتابه «تهافت الفلاسفة» الذى ألفه عام ٤٨٨ هجرية . . كان يحاول فيه أن يوضح تناقض الفلاسفة وتهافت أفكارهم . . ولم يجد الهداية إلا عن طريق التصوف . . والتصوف وسيلته هى الكشف. . حتى تنجلى للمتصوف الأنوار عن طريق العلم اللدنى. . وقد كانت رحلة التصوف هى آخر مراحل حياته الفكرية. .

والتصوف عند الغزالى يأتى بالكشف والمجاهدة. .

ولقد هاجم الغزالى البعض حتى اتهموه بالإلحاد . . أو التناقض فى أفكاره. .

هاجمه الفلاسفة . . وكان لا بد أن يهاجموه . . لأنه سهل الفلسفة للعامة . . وكشف ما كان فيها من زيف . . وكان على رأس من هاجموه ابن رشد . . الذى أتى بعده بحوالى قرن من الزمان . . كما هاجمه الفيلسوف ابن باجة وغيرهما. .

والذى يقرأ فلسفة الغزالى . . لا يرى هناك تناقضًا فى أفكاره. . كما ادعى ذلك معارضوه. .

لقد قالوا مثلاً إنه قال إن وسيلة المعرفة هى الكشف والمجاهدة. . وهاجم العقل كوسيلة للمعرفة . . ولكنه رد على الباطنية بمنطق العقل. .

ان الغزالى لم يكفر بالعقل ولا بالحواس . . ولكنه أصر أن هناك مجالات لا تقع تحت سلطان العقل والحواس . . فمثلاً نحن نرى النجم فى حجم الدينار . . فى حين أن هذا النجم أكبر من الأرض . . ونعرف ذلك عن طريق العقل . . فالحواس محدودة . . والعقل مجاله أوسع . . ولكن العقل يتنافى مع الوحى .

مثلاً هناك بعض الفلاسفة يقولون بأن اللَّه يدرك الكليات دون الجزئيات . . فهذا يتنافى مع الوحى . . والوحى . . لا يناقض العقل . . ولكن يدرك ما لا يدرك العقل . . وهكذا . . فالغزالى لم يناقض نفسه عندما هاجم الباطنية بمنطق العقل، فالغزالى يهاجم العقل على أساس أنه ليس هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة . . فهناك مجالات لا يمكن للعقل أن يصل إليها . . وكذلك الحواس . .

فهناك أشياء يعرفها الإنسان عن طريق الوحى . . كما أخبر النبى ﷺ بها عن هذا الطريق . .

وأهم الوسائل للمعرفة بعد الوحى هو الكشف . . الذى يراه قلب المؤمن الطيب . . إن قلب المؤمن هنا يصبح وسيلة التقاط . . وسيلة استقبال . . كالراديو بلغة العصر الحديث . . يستقبل ويرسل . . وهو صادق فى إرساله واستقباله . .

والقلب الخبيث . . لا يمكنه أن يرسل أو يستقبل كجهاز الراديو الفاسد . . يصبح آلة صماء بكماء . . عمياء . . فكلما كان القلب نقيًا ورعًا . . زاهدًا فى الدنيا . . يعيش باللَّه . . وفى اللَّه . . كلما

صفا هذا الجهاز الدقيق . . وكلما كان استقباله للمعارف الإلهية أكثر دقة . .

ولهذا قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه:

« لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا » . .

إن الغزالى عندما اتخذ العقل وسيلة للمعرفة . . كان يريد أن ينقى الدين مما علق به من أوهام الفلاسفة . . وإلحاد الزنادقة . . وشطحات الخيال . . وجهل الكثيرين بالدين على حقيقته . . ويريد أن ينقيه من خرافات بعض رجال الصوفية الذين فهموا الدين فهمًا خاطئًا . . فكانوا أقرب إلى المشعوذين منهم إلى رجال عرفوا اللَّه حق المعرفة . .

كما أنه فى هجومه على الفلاسفة . . كان محقًا تمامًا . . فقد كان مما يدعو للإعجاب أن ينبهر بعض الفلاسفة بآراء أرسطو وأفلاطون مثلاً . . ويرون أن فى هذه الأقيسة المنطقية من البراهين ما هو أدق من الحقائق التى جاء بها وحى السماء!! . .

إنه أراد أن يعيد الناس إلى النبع الصافى . . إلى الإسلام فى بساطته . . وروحه . . وسماحته . . وقوة تأثيره على النفوس والقلوب . . لهذا لم يعتقد بأى شىء يبعد الإنسان عن السنة النبوية الكريمة . . وإن كان درس كل ما فى عصره من علوم . . فلا لشىء إلا ليتحرى تلك الرسالة الجليلة التى وهب نفسه للدفاع عنها . . واستحق بجدارة أن يلقب بحجة الإسلام . .

ومن هنا كان واحدًا من المجددين العظام . . فى تاريخ الفكر الإسلامى . .

فقد درس . . وتعب . . وجد واجتهد . .

وكانت أمنيات حياته بعد أن صار من أعظم علماء بلاده . . أن يهبه الله إيمان العوام . .

هذا الإيمان البسيط . . الذى لا يحتاج إلى فلسفة . . ولا إجهاد عقل . . ولا ضرب أخماس فى أسداس . .

هذا الإيمان الذى يعيد للإنسان الأمن والأمان . . وهل هناك أكثر من سعادة النفس المؤمنة التى تصبر فى الشدائد . . وتقبل أهوال الحياة بالسكينة . . وتشكر أنعم الله عليها . . حتى إذا عبرنا هذا الجسر القصير . . جسر الحياة . . ورجعنا إلى اللَّه . . عشنا فى نعيم اللَّه فى الآخرة . .

هذا الإيمان البسيط بلا تعقيد . . وبلا سفسطة . . هو الذى يشعر الإنسان بالسعادة . . والإيمان بقضاء اللَّه وعدله . .

وما أكثر الفلاسفة الذين قرأنا عنهم ودرسنا سيرتهم فى مختلف العصور . . وقد أرهقهم الفكر . . وحملوا عقولهم أكثر من قدراتها . . وكانت نهايتهم مفزعة ورهيبة . . فالفيلسوف نيتشه الذى كان يتحدث عن العفن الإلهى . . فى الوقت الذى يتحدث فيه عن فلسفة القوة . . عاش حياته معتل الصحة . . وجن فى أخريات حياته . .

وأصبحت أفكاره وفلسفته هى المتعفنة . .

وما أكثر الفلاسفة الذين عاشوا فى قلق وتوتر . . وعدم استقرار . . وكانت حياتهم جحيمًا لا يطاق فى غياب اليقين . . فى غياب الإيمان باللّه . . وماتت فلسفاتهم بعد مماتهم . . أو فى حياتهم أيضًا . . لأن هؤلاء الفلاسفة لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولاً . . فعاشوا فى وهم حسبوه يقينًا . . وأصبحت حياتهم نفسها وهمًا من الأوهام . .

لقد هاجم الكثيرون الغزالى . . وذهبت أصواتهم وأصبحت صدى خافتًا لم يلبث أن يتلاشى فى أمواج العدم . . وظل فكر هذا الرجل ناصعًا . . قوى الحجة . . بالغ الجلال . .

لأنه صوت نابع من إيمان حقيقى . . من إنسان عرف طريقه وموضع خطاه . . وأراد أن ينتفع كل مسلم بما وصل إليه . . ومن هنا كانت مؤلفاته علامات طريق فى الفكر الإسلامى . .

ولنقف قليلاً أمام نص من النصوص التى كتبها الغزالى . . ونتأمل مافيها من جمال وجلال . . إنسان يشعر أن أيامه فى الدنيا قليلة . . وكل إنسان فى الدنيا أيامه قليلة . . إنه يعاتب نفسه . . يريد أن يجعلها تسلك الطريق السليم . . لأن كل ما فى الحياة من مغريات . . وكل ما فيها من نعيم : الغنى . . والجاه . . والسلطان . . كل هذه أمور نهايتها الزوال . . ولا يبقى للإنسان إلا ما قدم من خير أو شر . .

لنقرأ معًا ما كتبه الغزالى وهو يخاطب النفس . . يلومها . . ويحثها على السير فى طريق النور . . فى كتابه الإحياء:

« يا نفس ما أعظم جهلك . . تدعين الحكمة والذكاء والفطنة . . وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا . . يا نفسى . . لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه . . كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟

فبأى جسارة تتعرضين لمقت اللَّه وغضبه وشديد عقابه؟

ويحك يا نفس!!

طالما لا تؤمنين بالحساب . . وتظنين أنك إذا مت وانفلت وتخلصت؟ وهيهات . . فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك . . وآمنت به . . فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد . . فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية . . وتركنين إلى التسويف . . فما بالك تدعين الحكمة . . وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟ !

يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب؟ أتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردًا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء؟!

ويحك يا نفس!!

انزعى عن جهلك . . وقيسى آخرتك بدنياك . . إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء . .

يا نفس . . ما أعجب أمرك . وأشد جهلك . . وأظهر طغيانك . . ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه . . فكيف تبيعين يا نفسى ما يبقى أبد الآباد . . بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة؟!

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك . . فما بالك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها . . وتنزهًا عن كثرة غبائها . .

ويحك يا نفس؟!

قد أشرفت على الهلاك . . واقترب الموت . . وورد النذير . . فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك؟! والقبر بيتك . . والتراب فراشك . . والدود أنيسك . . والفزع الأكبر بين يديك!!

أما علمت يا نفس . . أن عسكر الموتى عندك على الباب ينتظرونك وقد آلوا عن أنفسهم بالأيمان المغلظة . . أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم؟!

أما تعلمين يا نفس؟!

أنهم يتمنون المراجعة إلى الدنيا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم . .

يا نفس . .

إن المذنب امتن من القدرة . . وإن الغدرة لا تظهر غيرها . . فلا تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك؟

ويحك يا نفس!

لو عرفت نفسك حق المعرفة..

ويحك يا نفس .. ما أغدرك! ويحك يا نفس .. ويحك يا نفس ما أوقحك .. ويحك يا نفس ما أجهلك! وما أجرأك على المعاصى! ويحك كم تعقدين فتفضين .. ويحك كم تعهدين فتغدرين .. ويحك يا نفس .. أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك.. كأنك غير مرتحلة عنها .. أما تنظرين إلى أهل القبور؟!!

ويحك يا نفس .. أما لك بهم عبرة ؟ أما لك إليهم نظرة ؟ أحذرى أيتها النفس السكينة .. يوم آل اللَّه فيه على نفسه ألا يترك عبدًا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله .. ودقيقة وجليلة.. سره وعلانيته ؟ فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى اللَّه؟

وبأى لسان تجيبين ؟ واعلمى يا نفس .. أن ليس للدين عوض.. ولا للإيمان بدل .. فاتعظى يا نفسى بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة .. فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالفكر .. وما أراك بها راضية .. ولا لهذه الموعظة واعية ».

بهذا الأسلوب الأخاذ .. وبهذه العبارات ذات المضامين المستنيرة كان يكتب الغزالى .. مستمدًا كل هذا من كتاب اللَّه وسنة رسوله..

غير أننا نجد أن الغزالى رغم ما قدمه للفكر الإسلامى .. فإن بعض المستشرقين الذين قدموا دراسات مطولة عند بعضهم وضعه فى

مكانه الصحيح . . وعرف مكانته ووزنه . . وبعضهم كان شديد الحقد عليه . . وبعضهم الآخر ادعى أن تصوف الغزالى كانت له بذور من الفلسفات الأخرى . . لأنهم من خلال ذلك يريدون أن يسيئوا للإسلام . . أو على الأقل يبينوا أن الإسلام لا يمكن أن يظهر فيلسوفًا عميقًا مجددًا دون أن يعتمد على مؤثرات نصرانية . . كما نرى فى كتاب «البارون كارادفو» . . والذى يحاول أن يجعل من بعض أفكار الغزالى صدى لفلسفات دخيلة على الإسلام . . فعندما يتحدث عن رأى الغزالى فى الاقتصاد مثلاً . . يعلق على ذلك البارون بقوله:

« إن مؤلفنا - يقصد الغزالى - لا يبدو واقيًا قدم صادرًا عن مأثور يونانى ولا عن تعليم فقهاء الإسلام الذين لهم طابع آخر. . بل يلوح ارتباطه كما هو الأحرى بمأثور لاتينى وبمأثور مشبع من شعور نصرانى !! وسنشعر كما أرى بأثر مماثل عندما نقرأ ما أفرد للألفة من صفحات رائعة. .

قال الإمام : إن الألفة ثمرة حسن الخلق . . والتفرق ثمرة سوء الخلق . . فحسن الخلق يوجب التحاب والتوالف والتوافق . وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر . . ومهما كان المثمر كانت الثمرة محمودة . . وحسن الخلق لا توزن به فى الدين فضيلة أخرى قال النبى ﷺ :

« أكثر ما يدخل الجنة تقوى اللَّه وحسن الخلق» . .

وقال النبى أيضًا:

« المؤمن إلف مألوف . . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وقال النبى أيضًا:

« مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى. . وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد اللّه أحدهما من صاحبه خيرًا ». .

وبعد أن يقتبس البارون كارادفوا هذه المقتطفات من كتب الإحياء. . يعلق قائلاً :

« ومن ثم ترى بلا عناء أننا لسنا هنا فى حقل يونانى . . بل فى حقل بيت فيه زرع إنجيلى ». .

ودافع هذا أن هذا المؤلف يحاول أن يغض من قيمة الغزالى وبأنه متأثر بالإنجيل . . وكأن ما أورده من أحاديث الرسول ﷺ جاءت من الإنجيل لا من سنة النبى ﷺ . . إنه من التعصب الأعمى بلا شك أبعد ما يكون عن الموضوعية العلمية. .

ونرى « ت . . جـ . . دى بور » فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام ». . يلقى نظرة إجمالية على فلسفة الغزالى بعد أن يشرحها شرحًا عميقًا فيقول:

«ولا ريب أن الغزالى أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام . . ومذهبه صورة لشخصيته . . زهد الغزالى فى محاولة تفهم هذا العالم أو حب الدنيا . . ولكنه أدرك أن المسألة الدينية أعمق مما أدركها فلاسفة عصره. . فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين فى نزعتهم . .

شأن أسلافهم اليونان . . فاعتبروا أن مقررات الدين ثمرة للقوة المتخيلة أو الوهم من جانب الشارع . . بل ثمرة لهواه . . ورأوا أن المتدينين . . إما انقيادًا وطاعة عمياء «عند البعض» أو ضربًا من المعرفة فيه حقائق أو فى مرئية من حقائق الفلسفة عند البعض الآخر . .

يعارض الغزالى هذا الرأى بأن يبين أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح . . وليس مجرد أحكام شرعية . . أو عقائد تلقى . . بل هو أكثر من ذلك . . هو شىء يحسه المتدين . . بروحه إحساسًا حيًا . .

ولا يحس كل إنسان بروحه ما يحس به الغزالى . . والذين لا يستطيعون متابعته إذ يعرج على أجنحة التصوف فى مدارج السالكين . . متخطيًا حدود المعارف التى يمكن اكتسابها بالتحصيل العادى . . لا محيص لهم عن الإقرار بأن محاولاته فى الوصول إلى اللَّه مهما كان من مغامرة فى ميادين المجهول . . ليست أقل فى تاريخ العقل الإنسانى من مسالك فلاسفة عصره . . وإن بدت هذه المسالك أدنى إلى اليقين . . لأن أصحابها إنما ساروا فى بلاد قد كشفها غيرهم من قبل» . .

ونرى « الدكتور زويمر » يقول:

« كل باحث فى تاريخ الإسلام . . يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل . . وهو محمد النبى . . والبخارى . . والأشعرى . . والغزالى » . .

وقد بلغت من قوة شخصية الغزالى الفكرية أن اعتقد بعضهم ومنهم وأستفليد الألمانى أن الغزالى نشأ فى بيئة علمية خالصة . . أى أن والده وأمه كانا من العلماء . . مع أن والده كان رجلاً لا يعرف حتى القراءة والكتابة . . ولكنها العبقرية هى التى كانت لها سمة بارزة من سمات الغزالى . .

ولا شك أن الصوفية بلغت بالغزالى مكانًا مرموقًا فى الإسلام على حد تعبير المستشرق «ماكدونالد» الذى تخصص فى دراسة الغزالى .

ولقد عبر الإمام المراغى عن تلك العبقرية بقوله :

« إذا ذكر ابن سينا أو الغزالى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان . . وإذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى . . له فى التصوف آراء لها خطورتها » . .

وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال . .

أما إذا ذكر الغزالى . . فقد تشعبت النواحى . . ولم يخطر بالبال رجل واحد . . بل خطر بالبال رجال معدودون لكل واحد قيمته وقدرته . . يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر . .

والغزالى الفقيه الحر . .

والغزالى المتكلم إمام أهل السنة وحامى حماها . .

والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم .. وخفيات الضمائر.. ومكونات القلوب..

والغزالى الفيلسوف .. أو الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف..

والغزالى المربى .. والغزالى الصوفى الزاهد .. وإن شئت فقل.. يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره..

هذه صورة تحليلية عن الرجل الذى أثرى الفكر الإسلامى .. وامتد أثره عبر قرون كثيرة .. وما زال رمزًا لحيوية الفكر الإنسانى وانطلاقه..

*****

٧ - نماذج من أقوال الإمام الغزالى

وإذا كنا فى الفصول السابقة . . قد وضحنا فلسفة الإمام الغزالى ووجهات نظره فى مختلف فروع المعرفة . . كما تحدثنا عن مسيرة حياته . . فإنه آن الوقت لنقف أمام بعض النصوص الذى كتبها الإمام العظيم . . والذى يرسم فيها بقلمه الأخاذ بعض مشاهد يوم القيامة . . إنه هنا يطلع القارئ على بعض أسرار الغيب . . كما جاءت فى الكتاب والسنة . . ونلاحظ أنه أخذ منهج التخويف والترغيب . .

بمعنى أن يحيط القارئ بمدى جبروت اللّه ورحمته أيضًا . . وأن على الإنسان أن يتقى الله حتى ينال رضاه ورحمته . . فالعذاب ينتظر الذين لم يتبعوا منهج اللّه . . والنعيم الذى لا يخطر على بال ينتظر الطائعين العارفين طريق اللّه . .

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت . . وخطره فى خوف العاقبة . . ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه . . ثم لمنكر ونكير . . وسؤالهما . . ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبًا عليه . . وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه . . من نفخ الصور . . والبعث يوم النشور . . والعرض على الجبار . . والسؤال عن القليل والكثير . . ونصب الميزان لمعرفة المقادير . . ثم جواز الصراط مع دقته وحدته . . ثم انتظار النداء عند فصل القضاء . . إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . . فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق . . ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها . .

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم . . ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم . . ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف . . وبرد الشتاء . . وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها . . مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال . . بل إذا سُئلوا عن يوم الآخر نطقت به ألسنتهم . . ثم غفلت عنه قلوبهم . . ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم . . فقال لصاحبه الذى أخبره صدقت . . ثم مد يده لتناوله . . كان مصدقًا بلسانه . . ومكذبًا بعمله . . وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . .

وقد قال النبى ﷺ : « قال اللّٰه تعالى: شتمنى ابن آدم . . وما ينبغى له أن يشتمنى . . وكذبنى . . وما ينبغى له أن يكذبنى. . أما شتمه إياى . . فيقول إن لى ولدًا . . وأما تكذيبه . . فتقوله لن يعيدنى كما بدأنى» . .

وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين . . والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لامثال تلك الأمور . . ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات . . وقيل له إن صانعًا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المصور . العاقل . . المتكلم . . المتصرف . . لاشتد نفور باطنه عن التصديق به . .

ولذلك قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

[يس: ٧٧].

وقال تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٦ - ٣٩].

ففى خلق الآدمى من كثرة عجائبه . . واختلاف تركيب أعضائه. . أعاجيب تزيد على الأعاجيب فى بعثه وإعادته . . فكيف

ينكر ذلك من قدرة اللَّه - تعالى - وحكمة من يشاهد ذلك فى صنعته وقدرته . . فإن كان فى إيمانك ضعف فقو الإيمان بالنظر إلى النشأة الأولى . . فإن الثانية مثلها وأسهل منها . . وإن كنت قوى الإيمان بها فاشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار . . وأكثر فيها التفكير والاعتبار . . لتسلب عن قلبك الراحة والقرار . . فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار . . وتفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور . . من شدة نفخ الصور . . فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى . . فيثورون دفعة واحدة . . فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرًا وجهك . . مغبرًا بدنك من فرقك إلى قدميك . . من تراب قبرك . . مبهوتًا من شدة الصعقة . . شاخص العين . . وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور . . التى طال فيها بلاؤهم . . وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافًا إلى ما كان عندهم من الهموم . . والغموم . . وشدة الانتظار لعاقبة الأمر . .

كما قال اللَّه تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر : ٦٨] .

وقال تعالى :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾ [المدثر : ٨ - ١٠] .

وقال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٤٨ - ٥٢].

فلو لم يكن بين يدى الموتى إلا هول تلكم النفخة لكان ذلك جديرًا بأن يتقى . . فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض . . يعنى يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . . ولذلك قال رسول الله ﷺ :

«كيف أنتم وصاحب الصور وقد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ» . .

قال مقاتل : الصور هو القرن . . وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق . . ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض . . وهو شاخص بصره نحو العرش . . ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى . . فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض . . أى مات كل حيوان من شدة الفزع . . إلا من شاء اللّه وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل . . ثم روح ميكائيل . . ثم روح إسرافيل . . ثم يأمر ملك الموت فيموت . . ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة . . ثم يحيى الله إسرافيل . . فيأمره أن ينفخ الثانية . . فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر : ٦٨]
على أرجلهم ينظرون إلى البعث..

وقال ﷺ :

« حين بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلاً وأخَّر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة »..

فتفكر فى الخلائق وذلهم .. وانكسارهم .. واستكانتهم عند الانبعاث خوفًا من هذه الصعقة .. وانتظارًا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة .. وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم .. متحير كتحيرهم .. بل إن كنت فى الدنيا من المترفين والأغنياء المنعمين .. فملوك الأرض فى ذلك اليوم أذل من أهل الأرض جمعًا .. وأصغرهم وأحقرهم .. يوطئون بالأقدام مثل الذر .. وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال .. منكسة رؤوسها .. مختلطة بالخلائق بعد توحشها .. ذليلة يوم النشور من غير خطيئة تدنست بها.. ولكن حشرتهم شدة الصعقة .. وهول النفخة .. وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم..

وذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير : ٥].

ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها .. وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على اللَّه تعالى.. تصديقًا لقوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم: ٦٨]

فتفكر فى حالك .. حال قلبك هناك..

صفة أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور .. حفاة .. عراة .. عزلاً .. إلى أرض المحشر .. أرض بيضاء .. قاع صفصف .. لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا .. ولا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها.. ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها .. بل هو صعيد واحد بسيط .. لا تفاوت فيه .. يساقون إليه زمرًا .. فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم .. من أقطار الأرض .. إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة .. والراجفة هى النفخة الأولى .. والرادفة هى النفخة الثانية .. وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة .. ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة..

قال رسول الله ﷺ :

« يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد ».

قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع .. والنقى هو النقى عن القشر والنخالة .. ومعلم أى لا بناء يستر .. ولا تفاوت يرد البصر .. ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا .. بل لا تساويها إلا فى الاسم ..

قال تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص. . وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها . . وتمد مد الأديم العكاظى . . أرض بيضاء مثل الفضة . . لم يسفك عليها دم . . ولم يعمل عليها خطيئة . . والسموات تذهب شمسها . . وقمرها . . ونجومها. .

فانظر يا مسكين فى هول ذلك اليوم وشدته . . فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد . . تناثرت من فوقهم نجوم السماء . . وطمس الشمس والقمر . . وأظلمت الأرض لخمود سراجها . . فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم . . وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام . . والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها. . فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك . . ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها . . وشدتها . . ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة . . فصارت وردة كالدهان . . وصارت السماء كالمهل. . وصارت الجبال كالعهن . . واشتبك الناس كالفراش المبثوث. . وهم حفاة عراة مشاة. .

قال رسول الله ﷺ :

« يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان». .

قالت سودة زوج النبى ﷺ راوية الحديث : قلت: يا رسول الله . . واسوأتاه . . ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال: «شغل الناس عن ذلك بهم : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧] فأعظم يوم تنكشف فيه العورات . . ويؤمن مع ذلك النظر والالتفات . . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوهم . . فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم . .

قال أبو هريره رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ :

«يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف . . ركبانًا ومشاة وعلى وجوهم» . . فقال رجل يا رسول اللَّه ، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال : «الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » . .

فى طبع الآدمى إنكار كل ما لم يأنس به . . ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف . . لأنكر تصور المشى على غير رجل . . والمشى بالرجل أيضًا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . . فإياك أن تنكر شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا . . فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا . . ثم عرضت عليك قبل المشاهدة . . لكنت أشد إنكارًا لها . . فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريًا مكشوفًا . . ذليلاً . . مدحورًا . . متحيرًا . . مبهوتًا . . منتظرًا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو الشقاوة . . وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة . .

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم . . حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع . . من ملك . . وجن . . وإنس . . وشيطان . . ووحش . . وسبع . . وطير . . فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها . . وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها . . ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين . . فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين، ولا يمكن من الاستظلال به إلا المقربون . . فمن مستظل بالعرش . . وبين مضح لحر الشمس . . قد صهرته بحرها . . واشتد كربه وغَمه من وهجها . . ثم تدافعت الخلائق . . ودفع بعضم بعضًا بشدة لشدة الزحام . . واختلاف الأقدام . . وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح . . والاختراء عند العرض على جبار السماء . . فاجتمع وهج الشمس . . وحر الأنفاس . . واحتراق القلوب . . بنار الحياء والخوف . . ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة . . ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله . . فبعضهم بلغ العرق ركبتيه . . وبعضهم حقويه . . وبعضهم إلى شحمة أذنيه . . وبعضهم كاد يغيب فيه . .

قال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ :

« يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى تغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ :

« يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعًا ويبلغ آذانهم» . (كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح) . .

وفى حديث آخر : « قيامًا شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب » . .

وقال عقبه بن عامر : قال رسول الله ﷺ :

« تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه . . ومنهم من يبلغ نصف ساقه . . ومنهم من يبلغ ركبته . . ومنهم من يبلغ فخذه . . ومنهم من يبلغ خاصرته . . ومنهم من يبلغ فاه ». وأشار بيده فألجمها فاه «ومنهم من يغطيه العرق» وضرب بيده على رأسه هكذا . .

فتأمل يا مسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم . . وفيهم من ينادى فيقول : يا رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار . . ولو إلى النار . . وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابًا ولا عقابًا . . فإنك واحد منهم . . ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق . .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم . . وتحمل مشقة فى أمر بمعروف . . ونهى عن منكر . . فيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة . . ويطول فيه الكرب . . ولو سلم ابن آدم من الجهل

والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرًا . . وأقصر زمانًا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة . . فإنه يوم عظيمة . . شدته . . طويلة مدته . .

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم . . منتظرة قلوبهم . . لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم . . يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة . . ولا يشربون فيه شربة . . ولا يجدون فيه روح نسيم . .

قال كعب وقتادة :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين: ٦].

قال: يقومون مقدار ثلثمائة عام . . بل قال عبدالله بن عمرو: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال:

«كيف بكم إذا جمعكم ربكم كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم».

وقال الحسن : ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة . . لا يأكلون فيها أكلة . . ولا يشربون فيه شربة . . حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا . . واحترقت أجوافهم جوعًا . . انصرف بهم إلى النار . . فسقوا من عين آنية قد آن حرها . . واشتد لفحها . . فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به . . كلم

بعضهم بعضًا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم . . فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم وقال : دعونى . . نفسى . . نفسى . . شغلنى أمرى عن غيرى . . واعتذر كل واحد بشدة غضب اللّه - تعالى - وقال قد غضب اليوم ربنا غضبًا لم يغضب قبله مثله . . ولا يغضب بعده مثله . . حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه . . لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن . . ورضى له قولاً . .

فتأمل فى طول هذا اليوم . . وشدة الانتظار فيه . . حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر . .

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا للموت . . لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات . . فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة . . قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال:

« والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمنين حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » . .

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين . . فما دام يبقى لك نفس من عمرك . . فالأمر إليك . . والاستعداد بيديك . . فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال . . تربح ربحًا لا منتهى لسروره . . واستحقر عمرك بل عمر الدنيا . . فإنك لو صبرت لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفًا لكان ربحك كثيرًا وتعبك يسيرًا . .

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه . . المديد زمانه . . القريب أوانه . . يوم ترى السماء فيه قد انفطرت . . والكواكب من هوله قد انتثرت . . والنجوم الزواهر قد انكدرت . . والشمس قد كورت . . والجبال قد سيرت . . والعشار قد عطلت . . والوحوش قد حشرت . . والبحار قد سجرت . . والنفوس إلى الأبدان قد زوجت . . والجحيم قد سعرت . . والجنة قد أزلفت . . والجبال قد نسفت . . والأرض قد مدت . .

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها . . وأخرجت الأرض أثقالها . . يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم . .

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . . فيومئذ وقعت القيامة وانشقت السماء فهى أذن واهية . . والملك على أرجائها . . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . .

يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة . . يوم ترج الأرض فيه رجا . . وتبس الجبال بسًا . . فكانت هباء منبثا . .

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . . وتكون الجبال كالعهن المنفوش . . يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت . . وتضع كل

ذات حمل حملها . . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى . . ولكن عذاب الله شديد . .

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . وبرزوا لله الواحد القهار . .

يوم تنسف فيه الجبال نسفًا . . فتترك قاعًا صفصفا . . لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا . .

يوم ترى الجبال تحسبها جامدة . . وهى تمر مر السحاب . .

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان . . فيومئذ لا يسئل عن ذنبه أنس ولا جان . .

يوم يمنع فيه العاصى من الكلام . . ولا يسئل فيه عن الإجرام . . بل يؤخذ بالنواصى والأقدام . .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا . . وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا . .

يوم تعلم فيه كل نقص ما أحضرت . . وتشهد ما قدمت وأخرت . .

يوم تخرس فيه الألسن . . وتنطق الجوارح . .

يوم شيب ذكره سيد المرسلين . . إذ قال له الصديق رضى الله عنه: أراك قد شبت يا رسول اللَّه !! قال : « شيبتنى هود وأخواتها» . . وهى الواقعة . . والمرسلات . . وعم يتساءلون . . وإذا

الشمس كورت . . فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن . . وتحرك به اللسان . . ولو كنت متفكرًا فيما تقرؤه لكنت جديرًا بأن تنشق مزارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين . . وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن . . فالقيامة أحد ما ذكر فيه . . وقد وصف اللَّه بعض دواهيها وأكثر من أساميها . . لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها . . فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرير الأسامى والألقاب. . بل الغرض تنبيه أولى الألباب. . فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر . . وفى كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها. .

ونحن الآن نجمع لك أساميها وهى :

المناقشة يوم القيامة - ويوم الحسرة - ويوم الندامة - ويوم المحاسبة - ويوم المساءلة - ويوم الساعة - ويوم المناقشة - ويوم المنافسة - ويوم الزلزلة - ويوم الدمدمة - ويوم الصاعقة - ويوم الواقعة - ويوم القارعة - ويوم الراجفة - ويوم الرادفة - ويوم الغاشية - ويوم الداهية - ويوم الآزفة - ويوم الحاقة - ويوم الطامة - ويوم الصاخة - ويوم التلاق - ويوم الفراق - ويوم المساق - ويوم القصاص - ويوم التناد - ويوم الحساب - ويوم المآب - ويوم العذاب - ويوم الفرار - ويوم القرار - ويوم اللقاء - ويوم البقاء - ويوم القضاء - ويوم الجزاء- ويوم البكاء - ويوم الحشر - ويوم الوعيد - ويوم العرض - ويوم الوزن - ويوم الحق - ويوم الحكم - ويوم الفصل - ويوم الجمع - ويوم البعث - ويوم الفتح - ويوم الخزى

- ويوم عظيم - ويوم عقيم - ويوم عسير - ويوم الدين - ويوم اليقين - ويوم النشور - ويوم المصير - ويوم النفخة - ويوم الصيحة - ويوم الرجفة- ويوم الرجة - ويوم الزجرة - ويوم الكرة - ويوم الفزع - ويوم الجزع - ويوم المنتهى - ويوم المأوى - ويوم الميقات - ويوم الميعاد - ويوم المرصاد - ويوم القلق - ويوم العرق - ويوم الافتقار - ويوم الانكدار - ويوم الانتشار - ويوم الانشقاق - ويوم الوقوف - ويوم الخروج - ويوم الخلود - ويوم التغابن - ويوم عبوس - ويوم معلوم - ويوم موعود - ويوم مشهود - ويوم لا ريب فيه - ويوم تبلى السرائر - ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئًا - ويوم تشخص فيه الأبصار - ويوم لا يغنى مولى عن مولى شيئًا - ويوم لا تملك نفس لنفس شيئًا - ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا - ويوم يسحبون فى النار على وجوهم - ويوم قلب وجوهم فى النار - ويوم لا يجزى والد عن والده - ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه - ويوم لا ينطقون فيه لايؤذن لهم فيعتذورن - ويوم لا مردً من اللَّه - ويوم هم بارزون - ويوم على النار يفتنون - ويوم لا ينفع فيه مال ولا بنون - ويوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار - ويوم ترد فيه المعاذير - وتبلى السرائر - ويوم تظهر الضمائر وتنكشف الأستار - يوم تخشع فيه الأبصار - وتسكن الأصوات - ويقل فيه الالتفات - وتبرز الخفيات - وتطهر الخطيئات - ويوم يساق العباد ومعهم الأشهاد - ويشيب الصغير - ويسكر الكبير - فيومئذ وضعت الموازين . . ونشرت الدواوين . . وبرزت الجحيم . . وأغلى

الحميم.. وزفرت النار .. ويئس الكفار .. وسعرت النيران .. وتغيرت الألوان .. وخرس اللسان .. ونطقت جوارح الإنسان ..

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم .. حيث أغلقت الأبواب.. وأرخيت الستور .. واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور.. فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك .. فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين .. يرسل الله لنا سيد المرسلين .. وينزل عليه الكتاب المبين .. ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين .. ثم يعرفنا غفلتنا .. ويقول ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنبياء: ١ - ٣] .. إلا استمعوه وهم يلعبون ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول:

﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾**﴾ [القمر: ١] ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾**﴾ [المعارج: ٦، ٧] ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾**﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً .. فلا نتدبر معانيه ولا ننظره فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه .. ولا نستعد للتخلص من دواهيه .. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بوسع رحمته..

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهًا من غير ترجمان . . فتسأل عن القليل والكثير . . والنقير والقطمير . . فبينما أنت فى كرب القيامة وعرقها . . وشدة عظائمها . . إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام . . وأشخاص ضخام غلاظ شداد . . أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار . . قال رسول اللَّه ﷺ :

«إن للَّه - عز وجل - ملكًا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام» . .

فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض . . وتراهم على عظم إشخاصهم منكسرين لشدة اليوم . . مقشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده. . وعند نزولهم لا يبقى نبى . . ولا صديق . . ولا صالح . . إلا ويخرون لأذقانهم خوفًا من أن يكونوا هم المأخوذين . فهذا حال المقربين . . فما ظنك بالعصاة المجرمين؟!

وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم . . وشدة هيبتهم . . فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم . . فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض . . وقالوا: سبحان ربنا! ما

هو فينا.. ولكنه آت من بعد .. وعند ذلك تقوم الملائكة صفًا محدقين بالخلائق من الجوانب .. وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .. وعند ذلك يصدق قوله تعالى:

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

وقوله :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢]

فيبدأ - سبحانه - بالأنبياء..

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء .. وتنمحى علومهم من شدة الهيبة .. إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق ؟ وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون .. فيقولون من شدة الهيبة: لا علم لنا .. إنك أنت علام الغيوب .. وهم فى ذلك الوقت صادقون .. إذ طارت منهم العقول .. وانمحت العلوم.. إلى أن يقويهم اللّه تعالى..

فيدعى نوح عليه السلام .. فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول: نعم .. فيقال لأمته : هل بلغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير..

ويؤتى بعيسى عليه السلام . . فيقول اللَّه - تعالى - له: أأنت قلت اتخذونى وأمى إلهين من دون اللَّه ؟ فيبقى متشحطًا تحت هيبة هذا السؤال سنين . . فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال! ثم تقبل الملائكة . . فينادون واحداً واحداً: . . يا فلان يا ابن فلانة . . هلم إلى موقف العرض . . وعند ذلك ترتعد الفرائض وتضرب الجوارح . . وتبهت العقول . . ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار . . ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار . . ولا ينكشف سترهم على ملأ الخلائق . .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرض . . وأشرقت الأرض بنور ربها . . وأيقن كل قلب عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد . . وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه . . وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه . . فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل، ائتنى بالنار . . فيجئ لها جبريل ويقول: يا جهنم، أجيبى خالقك ومليكك . . فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها . . فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت . . وزفرت إلى الخلائق وشهقت . . وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها . . وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبًا على من عصى اللَّه - تعالى - وخالف أمره . .

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد . . وقد امتلأت فزعًا ورعبًا فتساقطوا جثيا على الركب . . ولوا مدبرين . . يوم ترى كل أمة جاثية . . وسقط بعضهم على الوجوه منكبين . . ونادى العصاة والظالمون بالويل والثبور . . وينادى الصديقون: نفسى

نفسى . . فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية . . فتضاعف خوفهم . . وتخاذلت قواهم . . وظنوا أنهم مأخوذون . . ثم زفرت الثالثة . . فتساقط الخلائق على وجوهم . . وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع . . وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين . . فبلغت الحناجر كاظمين . . وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين . . وبعد ذلك أقبل اللَّه - تعالى - على الرسل وقال : ماذا أجبتم؟ فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء . . اشتد الفزع على العصاة . . ففر الوالد من ولده . . والأخ من أخيه . . والزوج من زوجته . . وبقى كل واحد منتظرًا لأمره . .

ثم يؤخذ واحد واحد . . فيسأله اللَّه - تعالى - شفاهًا عن قليل عمله وكثيره . . وعن سره وعلانيته . . وعن جميع جوارحه وأعضائه.

قال أبو هريرة : قالوا يا رسول اللَّه هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال : هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا . . قال : فهل تضارون فى رؤية القمر فى ليلة البدر وليس دونه سحاب؟ قالوا : لا . . قال : فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربح؟ فيقول العبد: بلى . . فيقول : أظننت أنك ملاقى؟ فيقول : لا . . فيقول: فأنا أنساك كما نسيتنى.

فتوهم نفسك أيها المسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى اللَّه - تعالى - يسألك شفاها . . فيقول لك : ألم أنعم عليك بالشباب ففيم ذا أبليته؟ . . ألم أمهل لك فى العمر . . ففيم ذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته . . وفيم ذا أنفقته؟ ألم أكرمك بالعلم. . فماذا عملت فيما علمت؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك . . وأياديه ومساويك ؟ فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك. .

قال أنس رضى الله عنه : كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال:

« أتدرون مما أضحك؟ قلنا اللَّه ورسوله أعلم . . قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يارب ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول بلى. . قال فيقول : فأنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدًا منى . . فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا . . وبالكرام الكاتبين شهودًا. . قال : فيختم على فيه . . ويقال لأركانه: انطقى . . فتنطق بأعماله . . ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه . . بعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكن كنت أنا أناضل». .

فنعوذ باللَّه من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء . . إلا أن اللَّه - تعالى - وعد المؤمن أن يستر عليه . . ولا يطلع عليه غيره. . سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ فقال : قال رسول اللَّه ﷺ : «يدنوا أحدكم من

ربه حتى يضع كتفه عليه فيقول: عملت كذا وكذا . . فيقول: نعم . . فيقول: عملت كذا وكذا . . فيقول: نعم نعم . . ثم يقول: إنى سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم» . .

وقال: قال رسول ﷺ :

«من ستر على مؤمن عورته ستر اللّه عورته يوم القيامة» . . فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم . . واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم . . ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم . . ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه . . فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة . .

وهب أنه قد ستره عن غيرك . . أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض . . فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك . . إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد . . وفؤادك مضطرب ولبك طائر . . وفرائصك مرتعدة . . وجوارحك مضطربة . . ولونك متغير . . والعالم عليك من شدة الهول مظلم . . فقدر نفسك وأنت بهذا الصفة تتخطى الرقاب . . وتخرق الصفوف . . وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب . . وقد رفع إليك الخلائق أبصارهم، فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هـذه الصفة . . حتى انتهى بك إلى عـرش الرحمن . . فرموك من أيديهم . . وناداك اللّه - سبحانه وتعالى - بعظيم كلامه يابن آدم ادن منى . . فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل . . وطرف خاشع ذليل . . وفؤاد منكسر . . وأعطيت كتابك

الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . . فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها . . وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن . . وكم لك من حصر وعجز . . فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه . . وبأى لسان تجيب . . وبأى قلب تعقل ما تقول . .

ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاهًا . . إذ يقول: يا عبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح . . واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل . . أكنت أهون عليك من سائر عبادى؟ أستخففت بنظرى إليك فلم تكترث . . واستعظمت النظر غيرى؟! ألم أنعم عليك؟ فماذا غرك بى؟ اظننت أنى لا أراك وأنت لا تلقانى؟

قال رسول اللَّه ﷺ : « ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » . .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « ليقفن أحدكم بين يدى اللَّه - عز وجل - ليس بينه وبينه حجاب، فيقول له: ألم أنعم عليك؟ ألم أوتك مالاً؟ فيقول : بلى . . فيقول : ألم أرسل لك رسولاً؟ فيقول: بلى . . ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار . . ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار . . فليتقِ أحدكم النار ولو بشق تمرة . . فإن لم يجد فبكلمة طيبة » . .

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخلو اللَّه - عز وجل - به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر . . ثم يقول: يا ابن

آدم ما غرك بى؟ يا ابن آدم ما عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيبًا على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك؟ ألم أكن رقيبًا على أذنيك؟ وهكذا حتى عد سائر أعضائه..

وقال مجاهد : لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى اللّه - عز وجل - حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه .. وعن علمه ما عمل فيه .. وعن جسده فيما أبلاه .. وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه ..

فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك .. فإنك من بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم .. فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك .. ويغبطك الأولون والآخرون .. وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه .. ثم الجحيم صلوه..

وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرًا بعظم مصيبتك .. وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة اللّه وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك..

ثم لا نغفل عن الفكر فى الميزان . وتطاير الكتب إلى الإيمان والشمائل . . فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة . . فيخرج من النار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير الحب . . وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار . . وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها . . وقسم آخر لا سيئة لهم . . فينادى منادٍ ليقم الحمادون للَّه على كل حال . . فيقومون ويسرحون إلى الجنة . . ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل . . ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر اللّه تعالى . . وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها . . ويبقى قسم ثالث . . وهم الأكثرون . . خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا . . وقد يخفى عليهم . . ولا يخفى على اللَّه - تعالى - أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم . . فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات . . وينصب الميزان . . وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال . . ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات . . وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . .

وروى الحسن أن رسول ﷺ كان رأسه فى حجر عائشة - رضى اللّه عنها - فنعش . . فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها . . فنقط على خد رسول اللَّه ﷺ . . فانتبه فقال : ما يبكيك ياعائشة؟ قالت

: ذكرت الآخرة . . هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال : والذى نفسى بيده فى ثلاث مواطن فإن أحدًا لا يذكر إلا نفسه إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله، وعند الصراط . .

وعن أنس قال: يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك . . فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا . . وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا . .

وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار . .

قال رسول اللَّه ﷺ فى يوم القيامة : إنه يوم ينادى اللَّه - تعالى - فيه آدم عليه السلام، فيقول له: قم يا آدم فابعث بعث النار، فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. . فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا . . فلما رأى رسول اللَّه ﷺ عند الصحابة قال :

اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى إبليس . . قالوا : وما هما يا رسول اللَّه؟ قال يأجوج ومأجوج، قال فسرى عن

القوم، فقال: اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالزقمة فى ذراع الدابة . .

* * * * *

وبعد :

فهذه صورة سريعة عن حياة الإمام الغزالى . . إنها مجرد إشارة إصبع إلى شخصية ملأت الأسماع . . وتركت من ذخائر الفكر ما لا يقدر بثمن . .

وهذه المحاولة ليست تقييمًا للغزالى . . فالغزالى قد أخذ وضعه . . وأصبح حجة الإسلام بشهادة خصومه قبل أنصاره . . ولكنها دليل أمام كل من يحاول أن يعرف . . ولا بد أن نعرف أعلام الفكر الإسلامى الذين تركوا كل ما هو جدير بالحياة . . فخدموا دينهم . . وخدموا الحياة . .

إنه من الممكن أن يكتب عن الغزالى بحث يستغرق مجلدات . . فقد ترك الرجل تراثًا هائلاً . . وكمًا كبيرًا من الكتب والدراسات والأبحاث . .

والباحث فى كل هذا التراث يمكن أن يسجله فى مجلدات . . ولكن محاولتى - كما قلت - هى مجرد إشارة إلى هذه الشخصية العظيمة والجليلة . . ليأخذ الشباب بعد ذلك فى قراءة تراثهم . . ويرجعوا إلى أعمال الرجل نفسه . . فيما كتب . . وفيما دوّن . .

وسوف يجدون فيها ذخيرة لا تنفذ . .

وسوف يجدون فيها هاديًا يهديهم سواء السبيل . .

وسوف يجدون فيها ما يعيد إليهم التوازن النفسى بينهم وبين أنفسهم . .

إن علينا أن نعيد النظر فى دراسة تراثنا . . ويجب أن نهتم بالتراث الذى ينفع أجيالنا فى دفع عجلة الحياة . . ونهمل من التراث ما يعوق بناء الحياة . . وما أكثر الذين دفعوا عجلة الحياة الفكرية والأدبية والعلمية إلى الأمام . . ومنهم الغزالى . .

ويكفى أن تعرف أن هناك دراسات كثيرة ومتعددة عن الغزالى قام بها علماء من الغرب . . فمن المؤسف إذن أن نتجاهل نحن أعلامنا . . بينما يقوم الغربيون بدراسة تراثنا . . ثم تقديمه لنا . . وربما لأسباب عديدة . . ولدوافع فى نفوسهم . . وربما لمحاولة التشكيك فى قيمنا، كما فعل البعض بالفعل . .

فأولى بعلمائنا أن يقوموا بهذه المهمة . . وأن يعيدوا دراسة تراثنا من جديد على ضوء متطلبات العصر . . حتى نسابق ظلنا ونصل إلى حضارة العصر . .

لقد كنا قادة العالم فى الفكر والأدب والثقافة . . وبالحضارة العربية التى ترجمت إلى أوربا فى عصورها المظلمة نهضت أوربا . . إذن فمن العيب أن نقف فى مؤخرة الدول وكنا فى مقدمة دول العالم تقدمًا وحضارة . .

وإذا كنا قد قدنا العالم فى الماضى نحو مشارف المستقبل . . فنحن قادرون على القيام بهذا الدور الذى قام به أجدادنا . . يوم كانوا قادة الدنيا . . ورسل الحضارة . . فى عالم قد فقد مقومات الحضارة . .

وسوف نحقق بإذن اللّٰه هذا الأمل . . وخاصة ونحن نسابق ظلنا اليوم لنصل بالعلم والإيمان إلى غد أكثر أملاً وإشراقًا . . وأكثر سعادة وإنتاجًا . . المهم أن نحلق إلى هذا المستقبل الواعد . . ونحن نطير بجناحين . . جناح العلم . . وجناح الإيمان . . جناح التقدم الصناعى . . وجناح السمو الروحى . . هنا تتوازن الحياة . . وهنا تتوازن النفس الإنسانية . . وهنا تنطلق إلى آفاق لم تكن تخطر على البال . . تبنى حضارة جديدة . . قوامها العلم والإيمان . . وإنا لبالغوها بمشيئة اللّٰه . .

المراجـــع

مؤلفات الإمام الغزالى :

١ - إحياء علوم الدين.
٢ - مقاصد الفلاسفة.
٣ - تهافت الفلاسفة.
٤ - المنقذ من الضلال.

- الغزالى . . طه عبدالباقى سرور.
- الغزالى . . أبو الحسن الندوى
- أبوحامد الغزالى المفكر الثائر محمد الصادق عرجون
- الفكر العربى ومكانته فى التاريخ تأليف ديلاس أوليرى ترجمة الدكتور / تمام حسين مراجعة دكتور مصطفى حلمى
- تاريخ الفلسفة فى الإسلام ب . چـ د ى بور - ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة.
- الغزالى . . تأليف البارون كارادفو - ترجمة عادل زعيتر.

وهذه الدراسات حول الإمام الغزالى:

- الغزالى ومصادره الإغريقية.	الدكتور / عبدالرحمن بدوى
- القصيدة التائية للإمام الغزالى.	الدكتور / زكى نجيب محمود
- فلسفة السياسة عند الغزالى.	للدكتور / محمد عبدالمعز نصر
- الغزالى الفقيه.	للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة
- الإمام الغزالى ومعرفة الغيب.	الدكتور / عبدالحليم محمود
- الغزالى الفيلسوف.	الدكتور / إبراهيم بيومى مدكور

كتب المؤلف

* آخر رسل السماء	مكتبة غريب
* نساء فى حياة الأنبياء	مكتبة غريب
* مشاهد من حياة الرسول	مكتبة غريب
* بيوت الله	مكتبة غريب
* خلافة أبو بكر الصديق	مكتبة غريب
* خلافة عمر بن الخطاب	مكتبة غريب
* خلافة عثمان بن عفان	مكتبة غريب
* خلافة على بن أبى طالب	مكتبة غريب
* قمم فى الدين والأدب والفلسفة	مكتبة غريب
* حجة الإسلام الغزالى	مركز الكتاب للنشر
* مع مشاهير الفكر والأدب	دار المعارف
* مصطفى محمود مفكرًا	دار الفيصل
* السحار والفكر الإسلامى	مكتبة مصر
* الشيخ الشعراوى وحقائق الإسلام	مكتبة غريب
* حديث الروح مع الشيخ الشعراوى	دار المعارف
* الإسلام وهؤلاء	دار الفيصل
* المبشرون بالجنة	مكتبة غريب
* هؤلاء ورحلة الذكريات	مكتبة مصر
* المرأة المسلمة وأمهات المؤمنين	أخبار اليوم



الفهرس

رقم الإيداع ١٣١٥٢/ ١٩٩٦
ISBN
977-5215-93-5

